حديث القرآن الكريم عن النفس الإنسانية

(دراسة موضوعية)

د / عبد الرقيب عبده خالد عبد الله

دكتوراه في التفسير وعلوم القرآن، اليمن ، إب

N٧١٢٨٤٩٥٠٥@gmail com

بسم الله الرحمن الرحيم

استهلال

قال تعالى:

﴿ يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفۡسُ ٱلۡمُطۡمَئِنَّةُ ٢٧

ٱرۡجِعِيٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةٗ مَّرۡضِيَّةٗ ٢٨

فَٱدۡخُلِي فِي عِبَٰدِي ٢٩ وَٱدۡخُلِي جَنَّتِي ٣٠ ﴾

[الفجر: ٢٧ – ٣٠]

إهـــــــداء

إلى الباحثين عن آيات الله في الأنفس والآفاق.

إلى الدعاة العاملين لدين الله عزَّوجل في كل زمان ومكان، إلى الذين فرَّغوا أنفسهم لخدمة دين الله عزَّوجل في مختلف الميادين.

إلى روح والدي ووالدتي، أهدي هذا العمل المتواضع، راجياً من الله عزَّوجل أن يجعل ثوابه في ميزان حسناتي وحسناتهما إنه سميع مجيب.

عبد الرقيب

المـــــقدمـــــة

النفس الإنسانية حيَّرت العلماء والمربين والفلاسفة عبر تاريخ البشرية الطويل، فلم يدركوا حقيقتها ولم يقفوا على أسرارها، وقد وحاول علماء النفس عبر القرون الماضية فهم النفس الانسانية على حقيقتها، وأنشأوا من أجل هذا الغرض ما تسمى بمدارس علم النفس، لكنهم لم يدركوا حقيقتها ولم يصلوا إلى أسرارها، وما زالت النفس الانسانية لغزا صعب المنال؛ وذلك لان جهودهم مقطوعة عن الوحي المنزل من عند الله تعالى الذي خلق النفس ويعلم بحقيقتها وبأمراضها وأنواعها وأحولها، هو ما سنتناوله في هذه الدراسة من خلال الوقوف على حديث القرآن الكريم عن النفس الإنسانية.

ولعلماء الإسلام جهود مباركة في بيان حقيقة النفس الانسانية، وهذه الجهود مستقاة من كتاب الله ومن سنة رسوله صلى الله عليه وسلم، قال الإمام ابن القيم : "النفس جبل عظيم شاق في طريق السير إلى الله عز وجل، وكل سائر لا طريق له إلا على ذلك الجبل، فلا بد أن ينتهي إليه، ولكن منهم من هو شاق عليه، ومنهم من هو سهل عليه، وإنه ليسير على من يسره الله عليه، وفي ذلك الجبل أودية وشعاب ولصوص يقطعون على السائرين، فإذا لم يكن معهم عُدَدْ الإيمان ومصابيح اليقين تتقد بزيت الإخبات، وإلا تعلقت بهم الموانع وتشبثت بهم تلك القواطع، وحالت بينهم

وبين السير، فإن أكثر السائرين فيه رجعوا على أعقابهم لما عجزوا عن قطعه واقتحام عقباته، والشيطان على قمة ذلك الجبل يحذر الناس من صعوده وارتفاعه ويخوفهم منه، وكلما رقى السائر في ذلك الجبل اشتد به صياح القاطع وتحذيره وتخويفه، فإذا قطعه وبلغ قمته انقلبت تلك المخاوف كلهن أمنا، وحينئذ يسهل السير، وتزول عنه عوارض الطريق ومشقة عقباتها، ويرى طريقا واسعا آمنا يفضي به إلى المنازل والمناهل، فبين العبد وبين السعادة والفلاح قوة عزيمة وصبر ساعة وشجاعة نفس وثبات قلب والفضل بيد الله يؤتيه من يشاء. والله ذو الفضل العظيم" [1].

د/ عبد الرقيب عبده خالد عبد الله الراشدي
دكتوراه في التفسير وعلوم القرآن
اليمن . إب
بريدي الإلكتروني
N٧١٢٨٤٩٥٠٥@gmail com
موبايل/ واتس: ٧١٢٨٤٩٥٠٥
١٩ رجب ١٤٤٣ الموافق ٢٠/٢/ ٢٠٢٢

(١) مدارج السالكين، لابن القيم ١٠/٢.

التمهيد: التعريف بمصطلحات الكتاب

أولا: النفس في اللغة

لفظ النفس في اللغة إذا اطلق يُراد به عدة معاني، قال ابن منظور:" النفس في كلام العرب على وجهين: أحدهما قولك: خرجت نفس فلان أي روحه، ويقال: في نفس فلان أن يفعل كذا وكذا، أي في روعه، والضرب الآخر، معنى النفس حقيقة الشيء وجملته، يقال: قتل فلان نفسه، والمعنى: أنه أوقع الهلاك بذاته كلها"(٢).

وقال ابن الأعرابي:" النفس: عين الشيء، وكنهه وجوهره، وقال الزجاج: لكل إنسان نفسان إحداهما: نفس التمييز، وهي التي تفارقه إذا نام فلا يعقل بها، والأخرى نفس الحياة، وإذا زالت زال معها النَّفَسْ، والنائم يتنفس، قال: وهذا الفرق بين توفي نفس النائم في النوم وتوفي نفس الحي، قال: ونفس الحياة هي الروح وحركة الإنسان ونموه يكون به"(٣).

(٢) لسان العرب ، لابن منظور ٤/ ٢٩٩، وينظر: معجم مقاييس اللغة، لابن فارس صـ ٦٨٨، والمفردات ، للراغب الأصفهاني صـ ٨١٨.

(٣) تهذيب اللغة، للأزهري ٨/١٣، باختصار.

ثانيا: النفس في الاصطلاح

عرَّفها المناوي بقوله:" النفس الجوهر البخاري اللطيف الحامل لقوة الحياة والحس والحركة الإرادية، وهي جوهر مشرق للبدن فعند الموت ينقطع ضوؤه من ظاهر البدن وباطنه، وأما وقت النوم فينقطع ضوؤه عن ظاهره دون باطنه فثبت أن النوم والموت من جنس واحد؛ لأن الموت انقطاع كلي والنوم انقطاع ناقص فثبت أن القادر الحكيم دبر تعلق جوهر النفس بالبدن على ثلاثة أضرب، إن غلب ضوء النفس على جميع أجزاء البدن ظاهره وباطنه فهو اليقظة، وإن انقطع ضوؤها عن ظاهره فقط فالنوم، أو بالكلية فالموت"(٤).

وعرَّفها ملا علي قاري بقوله:" إن النفس لطيفة في الجسد تولَّدت من ازدواج الروح والبدن واتصالهما، والروح لطيف روحاني والجسد كثيف ظلماني، والنفس متوسطة بينهما تقبل اللطافة الروحانية والكثافة الجسمانية، وهذا هو التسوية التي قال الله تعالى: ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ﴾ [الشمس: ٧] فصارت النفس بها قابلة للخير والشر والفجور والتقوى، فإذا غلب الأمر بالتقوى صارت مزكاة عن الكدورات متوجهة إلى الدين قابلة لليقين، وإذا غلب الأمر بالفجور صارت تابعة للهوى سالكة مسالك الردى"(٥).

---

(٤) التوقيف على مهمات التعاريف، للمناوي صـ ٣١٥، وينظر: التعريفات، للجرجاني صـ ٣١٢.

(٥) شرح مشكاة المصابيح، للملا على قاري٢/ ٥٢، باختصار.

ومما سبق يتبين لنا أن النفس الإنسانية هي حقيقة الإنسان وجوهره، ولهذه النفس تعلق ببدن الإنسان بحسب وصحوه ومنامه ومماته.

وقد وردت كلمة " نفس" في القرآ الكريم (٢٩٨) مرة، وقد جاءت بصيغة الإفراد في ١٤٠ مرة، ووردت بصيغة الجمع (١٥٥) مرة[٦].

ثالثاً: العلاقة بين النَّفْس والروح

وقع خلاف بين أهل العلم هل النفس والروح شئ واحد، أم أنهما شيئين مختلفين؟

ذهب العلامة ابن القيم إلى أن النفس والروح بمعنى واحد حيث قال:" وأما أرواح بنى آدم فلم تقع تسميتها في القرآن إلاَّ بالنفس، قال تعالى:﴿ يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴾ [الفجر: ٢٧]، وقال تعالى:﴿ وَلَآ أُقْسِمُ بِٱلنَّفْسِ ٱللَّوَّامَةِ ﴾ [القيامة: ٢]، وقال تعالى:﴿ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّىٓ ﴾ [يوسف: ٥٣]، وقال تعالى:﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴾، [العنكبوت: ٥٧] وأما في السنة فجاءت بلفظ النفس والروح "[٧].

وممن ذهب إلى هذا القول الإمام الراغب الأصفهاني، حيث قال:" وجعل الروح اسما للنفس؛ وذلك لكون النفس بعض الروح كتسمية النوع باسم

---

(٦) المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، لمحمد فؤاد عبد الباقي صـ ٢٦٢.

(٧) الروح ، لابن القيم صـ ١٥٣باختصار.

الجنس، نحو تسمية الإنسان بالحيوان، وجعلت اسما للجزء الذي به تحصل الحياة والتَّحرُّك، واستجلاب المنافع واستدفاع المضار، وهو المذكور في قوله تعالى: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [الإسراء: ٨٥] وفي قوله، ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴾ [الحجر: ٢٩] (٨)

وذهب الإمام الطَّحاوي إلى أن النفس غير الروح، حيث قال رحمه الله:" وأما اختلاف الناس في مسمى النفس والروح: هل هما متغايران، أو مسماهما واحد ؟ فالتحقيق: أن النفس تُطلق على أمور، وكذلك الروح، فيتحد مدلولهما تارة، ويختلف تارة، فالنفس تطلق على الروح، ولكن غالب ما يسمى نفسا إذا كانت متصلة بالبدن، وأما إذا أخذت مجردة فتسمية الروح أغلب عليها، وأما الروح فلا يطلق على البدن لا بانفراده ولا مع النفس، وقد وقع في كلام كثير من الناس أن لابن آدم ثلاثة أنفس: مطمئنة، ولوامة، وأمارة، قالوا : وإن منهم من تغلب عليه هذه، ومنهم من تغلب عليه هذه "(٩).

وممن قال بأن الروح غير النفس الإمام السهيلي واستدل بعدة أدلة منها:" قوله تعالى:﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴾[الحجر: ٢٩] ولم يقل من نفسي وكذلك قال: ﴿ ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ ﴾[السجدة: ٩] ولم

(٨) المفردات، للأصفهاني صـ ٣٦٩، باختصار.

(٩) شرح العقيدة الطحاوية، لابن أبي العز الحنفي صـ ١٨٦، باختصار.

يقل من نفسه ولا يجوز أيضا أن يقال هذا، وذلك يدل على أن بينهما فرقا في المعنى، وبعكس هذا قوله سبحانه: ﴿ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴾ [المائدة: ١١٦] ولم يقل تعلم ما في روحي، ولا أعلم ما في روحك، وقال تعالى: ﴿ إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيَ ۚ ﴾[يوسف: ٥٣] ولم يقل إن الروح لأمارة؛ لأن الروح لا تأمر بسوء، ولو كانت النفس والروح اسمين لمعنى واحد لصح وقوع كل واحد منهما مكان الآخر، فمن قال: إن النفس هي الروح على الإطلاق من غير تقييد لم يُحْسِن العبارة، وفي النفس من الروح الأوصاف التي تقتضيها نفخة الملك، فمن الروح عفافها وحلمها ووفاؤه وفهمها، ومن النفس شهوتها وغضبها وطيشها.

والروح سبب للحياة، فهي كالماء الجاري في عروق الشجرة حتى تحيا به عادة، والماء النازل من السماء جنس واحد فإذا مازج أجساد الشجر كالتفاح والفرسك والحنظل فاختلفت أنواعه على حسب اختلاف أنواع الشجر من حلو وحامض ومر وحريف، وكذلك الروح الباطنة التي هي من عند الله هي جنس واحد فإذا خالطت الأجساد التي خلقت من طين، فمن ذلك الطين طيب وخبيث فينزع كل فرع إلى أصله وينزع ذلك الأصل إلى ما سبق في أم الكتاب وإلى ما دبره وأحكمه الحكيم.

فتحصَّل من مضمون ما ذكرنا ألاَّ يقال في النفس هي الروح على الإطلاق ولا يقال في الروح هي النفس، حتى تقيد، فتقييد الألفاظ هو معنى الكلام وتنزيل كل لفظ في موضعه هو معنى البلاغة فافهمه [١٠].

قال الحافظ ابن كثير معلقا على كلام الإمام السهيلي:" وهذا معنى حسن، وقد تكلم الناس في ماهية الروح وأحكامها وصنفوا في ذلك كتبا، ومن أحسن من تكلم على ذلك الحافظ ابن مندة، في كتاب سمعناه في: الروح[١١].

والعلَّ ما ذهب إليه الإمامان الطحاوي والسهيلي في هذه المسألة هو الأظهر، والعلم عند الله تعالى.

---

(١٠) الروض الأنف، للسهيلي ٢/ ٧٠ باختصار وتصرف.

(١١) تفسير ابن كثير ١١/٥، قبت: وللإمام ابن القيم، كتابا سماه الروح؛ ولعله استفاد عن كتاب الروح لابن مندة؛ لكون ابن مندة متقدم على ابن القيم.

المبحث الأول: أنواع النفس الإنسانية

تحدث القرآن الكريم عن النفس الإنسانية باعتبار أن لها ثلاثة أنواع، فقد تكون نفساً أمارة بالسوء وقد تكون نفساً لوَّامة، وقد تكون نفساً مطمئنة سوف نتناول هذه الأنفس في هذا المبحث على النحو التالي:

أولاً: النفس الأمارة بالسوء

وهذه النفس في غالب أحوالها تدعو صاحبها إلى اتباع الهوى وفعل المعاصي والسيئات، وقد عرَّفها علماء الإسلام بتعريفات متعددة، قال ابن تيمية بقوله:" هي التي يغلب عليها اتباع هواها بفعل الذنوب والمعاصي"[١٢]، وقال المناوي:" النفس الأمارة التي تميل إلى الطبيعة البدنية وتأمر باللذات والشهوات الحسية وتجذب القلب إلى الجهة السفلية فهي مأوى الشرور ومنبع الأخلاق الذميمة"[١٣].

وقد تحدث الله تعالى عن هذه النفس في كتابه الكريم في قوله تعالى:﴿ إِنَّ ٱلنَّفۡسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓۚ إِنَّ رَبِّي غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴾[يوسف: ٥٣]، وقد وقع خلاف بين أهل التفسير هل هذا الكلام من كلام امرأة العزيز أم من كلام

---

(١٢) فتاوي ابن تيمية ٢/ ٣٣٨.

(١٣) التوقيف على مهمات التعاريف، للمناوي صـ ٣١٦.

يوسف عليه السلام؟، وقد ذكر الإمام ابن كثير في ذلك قولين، **القول الأول:** إنه من كلام امرأة العزيز، حيث إنها اعترفت بهذا على نفسها؛ وذلك ليعلم زوجي أني لم أخنه في نفس الأمر، ولا وقع المحذور الأكبر، وإنما راودت هذا الشاب مراودة، فامتنع؛ فلهذا اعترفْتُ ليعلم أني بريئة، فالمرأة تقول: ولست أبرئ نفسي، فإن النفس تتحدث وتتمنى؛ لأنها أمارة بالسوء، وهذا القول هو الأشهر والأليق والأنسب بسياق القصة ومعاني الكلام.

القول الثاني: إن ذلك من كلام يوسف، عليه السلام، وهذا القول هو الذي لم يحك ابن جرير الطبري[١٤] ولا ابن أبي حاتم[١٥] سواه، والقول الأول أقوى وأظهر؛ لأن سياق الكلام كله من كلام امرأة العزيز بحضرة الملك، ولم يكن يوسف، عليه السلام، عندهم، بل بعد ذلك أحضره الملك"[١٦].

وقد ردَّ الإمام ابن كثير على أصحاب الثاني في كتابه قصص الأنبياء، حيث قال:" وأكثر أقوال المفسرين هاهنا مُتَلَقَّى من كتب أهل الكتاب، فالإعراض عنه أولى بنا، والذى يجب أن يعتقد: أن الله تعالى عصمه وبرأه، ونزهه عن الفاحشة وحماه عنها وصانه منها، ولهذا قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصۡرِفَ عَنۡهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلۡفَحۡشَآءَۚ إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُخۡلَصِينَ﴾ [يوسف: ٢٤] [١٧].

---

(١٤) تفسير الطبري ١٦/ ١٤٣.

(١٥) تفسير ابن أبي حاتم ٧/ ٢١٥٨.

(١٦) تفسير ابن كثير ٤/ ٣٩٥، باختصار.

(١٧) قصص الأنبياء، لابن كثير ١/ ٣٢١.

وقد نصر هذا القول العلامة ابن تيمية حيث قال:" وقد قال كثير من المفسرين إن هذا من كلام يوسف، ومنهم من لم يذكر إلا هذا القول وهو قول في غاية الفساد ولا دليل عليه؛ بل الأدلة تدل على نقضه، فقوله: ﴿ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفۡسِيٓۚ إِنَّ ٱلنَّفۡسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓۚ إِنَّ رَبِّي غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴾ فمن كلام امرأة العزيز كما يدل القرآن على ذلك دلالة بيِّنة لا يرتاب فيها من تدبر القرآن حيث قال تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلۡمَلِكُ ٱئۡتُونِي بِهِۦٓۖ فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ قَالَ ٱرۡجِعۡ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسۡـَٔلۡهُ مَا بَالُ ٱلنِّسۡوَةِ ٱلَّٰتِي قَطَّعۡنَ أَيۡدِيَهُنَّۚ إِنَّ رَبِّي بِكَيۡدِهِنَّ عَلِيمٞ ٥٠ قَالَ مَا خَطۡبُكُنَّ إِذۡ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفۡسِهِۦۚ قُلۡنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمۡنَا عَلَيۡهِ مِن سُوٓءٖۚ قَالَتِ ٱمۡرَأَتُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡـَٰٔنَ حَصۡحَصَ ٱلۡحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفۡسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ٥١ ذَٰلِكَ لِيَعۡلَمَ أَنِّي لَمۡ أَخُنۡهُ بِٱلۡغَيۡبِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي كَيۡدَ ٱلۡخَآئِنِينَ ٥٢ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفۡسِيٓۚ إِنَّ ٱلنَّفۡسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓۚ إِنَّ رَبِّي غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٥٣ ﴾[يوسف: ٥٠ –٥٣]

فهذا كله كلام امرأة العزيز ويوسف إذ ذاك في السجن لم يحضر بعد إلى الملك ولا سمع كلامه ولا رآه؛ ولكن لما ظهرت براءته في غيبته، كما قالت امرأة العزيز: ﴿ ذَٰلِكَ لِيَعۡلَمَ أَنِّي لَمۡ أَخُنۡهُ بِٱلۡغَيۡبِ ﴾ أي لم أخنه في حال مغيبه عني وإن كنت في حال شهوده راودته فحينئذ: ﴿ وَقَالَ ٱلۡمَلِكُ ٱئۡتُونِي بِهِۦٓ أَسۡتَخۡلِصۡهُ لِنَفۡسِيۖ فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ قَالَ إِنَّكَ ٱلۡيَوۡمَ لَدَيۡنَا مَكِينٌ أَمِينٞ ﴾ [يوسف: ٥٤] .

فيوسف الصديق لم يذكر الله عنه ذنبا فلهذا لم يذكر الله عنه ما يناسب الذنب من الاستغفار بل ﴿ كَذَٰلِكَ لِنَصۡرِفَ عَنۡهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلۡفَحۡشَآءَۚ إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا

ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٢٤﴾ [يوسف: ٢٤] فأخبر أنه صرف عنه السوء والفحشاء وهذا يدل على أنه لم يصدر منه سوء ولا فحشاء"[١٨].

فالصحيح من أقوال أهل التفسير أن المراد بالنفس الأمارة بالسوء في هذه الآية هي نفس امرأة العزيز وليست نفس يوسف عله السلام، وأدلة وما ستدل به أصحاب القول الثاني لا تصمد أمام ما ذكره القائلين بالقول الأول، وعامة ما استدلوا به من الإسرائيليات ولم يرد دليل على قولهم من كتاب ولا من سنه كما أشار إلى ذلك العلامة ابن تيمية وتلميذة ابن كثير.

ثانياً: النفس اللوَّامة

عرَّفها الإمام ابن تيمية بقوله:" هي التي تذنب وتتوب فعندها خير وشر لكن إذا فعلت الشر تابت وأنابت فتسمى لوامة؛ لأنها تلوم صاحبها على الذنوب؛ ولأنها تتلوَّم أي تتردد بين الخير والشر"[١٩].

وقال المناوي:" النفس اللوامة التي تنورت بنور القلب فكلما صدرت منها سيئة بحكم جبلتها الظلمانية نفتها بلوم وتتوب عنها"[٢٠].

---

(١٨) مجموع فتاوي ابن تيمية ٢/ ٣٧٢، باختصار وتصرف .

(١٩) فتاوي ابن تيمية ٢/ ٣٣٨.

(٢٠)التوقيف على مهمات التعاريف، للمناوي صـ ٣١٦.

ولأهمية هذه النفس فقد أقسم الله بها في كتابه الكريم، وذلك في قوله تعالى: ﴿ لَآ أُقۡسِمُ بِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ ۝١ وَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلنَّفۡسِ ٱللَّوَّامَةِ ۝٢ ﴾[القيامة: ١ – ٢]، قال الإمام الطبري:" واختلفوا أيضا في ذلك، هل هو قسم أم لا؟ فقال بعضهم: هو قَسَم أقسم ربنا بيوم القيامة، وبالنفس اللوامة، وقال آخرون: بل أقسم بيوم القيامة، ولم يقسم بالنفس اللوامة، وقالوا: معنى قوله تعالى: ﴿ وَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلنَّفۡسِ ٱللَّوَّامَةِ ﴾ أي: ولست أقسم بالنفس اللوامة.

وأولى الأقوال في ذلك عندي بالصواب قول من قال: إن الله أقسم بيوم القيامة وبالنفس اللوامة، وجعل "لا" رداً لكلام قد كان تقدمه من قوم، وجوابا لهم، والجميع من أهل الحجة مجمعون على أن قوله: ﴿ لَآ أُقۡسِمُ بِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ ﴾ قسم فكذلك قوله: ﴿ وَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلنَّفۡسِ ٱللَّوَّامَةِ ﴾ إلا أن تأتي حجة تدل على أن أحدهما قسم والآخر خبر"[٢١].

وقال القاسمي:" جمع الله تعالى بين القيامة والنفس اللوامة، في القسم بهما، تعظيما لشأنهما، وتناسبا بينهما، والنفس اللوَّامة، هي تلوم نفسها أبدا في التقصير، والتقاعد عن الخيرات؛ لحرصها على الزيادة في الخير، وأعمال البر، تيقنا بالجزاء"[٢٢].

([٢١]) تفسير الطبري٢٤/ ٤٩، باختصار.

([٢٢]) محاسن التأويل، للقاسمي ٩/ ٣٦٢، باختصار.

قال الإمام الشوكاني:" النفس اللوامة هي النفس التي تلوم صاحبها على تقصيره، أو تلوم جميع النفوس على تقصيرها، وعلى هذا فالكلام خارج مخرج المدح للنفس، فيكون الإقسام بها حسنا سائغا، قال مجاهد: هي التي تلوم على ما فات وتندم، فتلوم نفسها على الشر لم تعمله؟ وعلى الخيرِ لمَ لَمْ تستكثر منه؟ وقال الفراء: ليس من نفس برة ولا فاجرة إلاَّ وهي تلوم نفسها، إن كانت عملت خيرا قالت: هلا ازددت، وإن كانت عملت سوءا قالت: ليتني لم أفعل، وقال مقاتل: هي نفس الكافر يلوم نفسه ويتحسر في الآخرة على ما فرط في جنب الله، والأول أولى"[٢٣].

ومن الآيات القرآنية التي يمكن حملها على أنها تدل على النفس اللوامة قوله تعالى:﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلُوا۟ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾ ﴾[آل عمران: ١٣٥]، هذه الآية تبين حال شخص قادته نفسه الأمارة بالسوء إلى ارتكاب فاحشة من فواحش الذنوب والمعاصي، لكنه سرعان ما أنَّبَته نفسه اللوامة، فتذكَّر عظمة ربه، فقاده ذلك للندم والاستغفار، وعدم الإصرار على الذنب والمعصية، قال الإمام الطبري في تفسيره لهذه الآية:" الفاحشة هي: الفعلة القبيحة الخارجة عما أذن الله عز وجل فيه، وقيل: إن

---

(٢٣) فتح القدير، للشوكاني ٧/ ٣٦١، باختصار وتصرف.

الفاحشة في هذا الموضع، معنى بها الزنا، ومعنى قوله تعالى: ﴿ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ ﴾، أي: ذكروا وعيد الله على ما أتوا من معصيتهم إياه ﴿فَٱسۡتَغۡفَرُواْ لِذُنُوبِهِمۡ ﴾، يقول: فسألوا ربهم أن يستر عليهم ذنوبهم بصفحه لهم عن العقوبة عليها ﴿ وَمَن يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾ ، يقول: وهل يغفر الذنوب أي يعفو عن راكبها فيسترها عليه إلا الله

وأما قوله:﴿ وَلَمۡ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ ﴾ فإن أهل التأويل اختلفوا في تأويل" الإصرار"، ومعنى هذه الكلمة، فقال بعضهم: معنى ذلك: لم يثبتوا على ما أتوا من الذنوب ولم يقيموا عليها، ولكنهم تابوا واستغفروا، كما وصفهم الله به، وقال آخرون: معنى ذلك: لم يواقعوا الذنب إذا هموا به، وقال آخرون: الإصرار، السكوت على الذنب وترك الاستغفار، وأولى الأقوال في ذلك بالصواب عندنا، قول من قال:" الإصرار" الإقامة على الذنب عامدا، وترك التوبة منه، ولا معنى لقول من قال:" الإصرار على الذنب هو مواقعته"؛ لأن الله عز وجل مدح بترك الإصرار على الذنب ولو كان المواقع الذنب مصرا بمواقعته إياه، لم يكن للاستغفار وجه مفهوم؛ لأن الاستغفار من الذنب إنما هو التوبة منه والندم، ولا يعرف للاستغفار من ذنب لم يواقعه صاحبه وجه،

تأويل قوله: ﴿ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ معناه: وهم يعلمون أنهم قد أذنبوا، وقال آخرون: معنى ذلك: وهم يعلمون أن الذي أتوا معصية لله" [٢٤].

ولا يمكن للنفس اللوامة أن تلوم صاحبها على التقصير وفعل المعاصي والسيئات إلا إذا حاسبها، قال ابن القيم:" محاسبة النفس حتى تعرف ما لها وما عليها ولا يدعها تسترسل في الحقوق استرسالا فيضيعها ويهملها فزكات النفس وطهارتها موقوف على محاسبتها فلا تزكو ولا تطهر ولا تصلح ألبتة إلا بمحاسبتها قال الحسن رضي الله عنه : إن المؤمن والله لا تراه إلا قائما على نفسه : ما أردت بكلمة كذا ما أردت بأكلة ما أردت بمدخل كذا ومخرج كذا ما أردت بهذا مالي ولهذا والله لا أعود إلى هذا ونحو هذا من الكلام فبمحاسبتها يطلع على عيوبها ونقائصها فيمكنه السعي في إصلاحها"[٢٥].

وقد وردت جملة من الأحاديث تبين جزاء صاحب النفس اللوامة الذي تقوده نفسه لفعل المعاصي لكنه سرعان ما يراجع حسابته مع ربه ويسارع بالتوبة والاستغفار، فعن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم: "إن رجلا أذنب ذنبا فقال: ربِّ إنى أذنبت ذنبا أو قال عملت عملا ذنبا فاغفره، فقال عز وجل: عبدي عمل ذنبا فعلم أن له ربا يغفر الذنب ويأخذ به قد غفرت

([٢٤]) تفسير الطبري ٧/ ٢١٨، باختصار وتصرف.

([٢٥]) مدارج السالكين، لابن القيم ٢/ ٥١٠.

لعبدي، ثم عمل ذنبا آخر أو أذنب ذنبا آخر فقال: رب إنى عملت ذنبا فاغفره فقال تبارك وتعالى: علم عبدي إن له ربا يغفر الذنب ويأخذ به قد غفرت لعبدي، ثم عمل ذنبا آخر أو أذنب ذنبا آخر فقال: رب إنى عملت ذنبا فاغفره فقال: علم عبدي ان له ربا يغفر الذنب ويأخذ به قد غفرت لعبدي فليعمل ما شاء[٢٦] .

ويستحب الوضوء وصلاة ركعتين عند التوبة من الذنب، فعن علي ابن أبي طالب رضي الله عنه قال قال رسول صلى الله عليه وسلم قال: "ما من رجل يذنب ذنبا فيتوضأ فيحسن الوضوء ثم يصلي ركعتين فيستغفر الله عز وجل إلا غفر له"[٢٧] .

وعن عثمان بن عفان ري الله عنه أنه دعا بإناء فأفرغ على كفيه ثلاث مرار فغسلهما ثم أدخل يمينه في الإناء فمضمض واستنشق ثم غسل وجهه ثلاثا ويديه إلى المرفقين ثلاث مرار ثم مسح برأسه ثم غسل رجليه ثلاث مرار إلى الكعبين ثم قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:" من توضأ نحو وضوئي هذا ثم صلى ركعتين لا يحدث فيهما نفسه غفر له ما تقدم من ذنبه[٢٨].

---

(٢٦) مسند أحمد برقم(٧٩٣٥)، وقال عنه شعيب الأرناؤوط : إسناده صحيح على شرط الشيخين.

(٢٧) مسند أحمد برقم(٢) وقال عنه شعيب الأرناؤوط: إسناده صحيح، الحديث باختصار.

(٢٨) صحيح البخاري برقم(١٥٥).

فعلى المسلم الراغب في نجاة نفسه تعزيز الرقابة الذاتية عليها؛ وذلك بالإصغاء إلى حديث النفس اللوامة والاستجابة لندآتها التي تدعوه إلى التوبة إلى الله تعالى وسلوك طريق النجاة .

النوع الثالث: النفس المطمئنة

عرَّفها ابن تيمية النفس المطمئنة بقوله:" هي التي تحب الخير والحسنات وتريده وتبغض الشر والسيئات وتكره ذلك وقد صار ذلك لها خلقا وعادة وملكة"[٢٩]، قال الجرجاني هي:" التي تنورت بنور القلب حتى انخلعت عن صفاتها الذميمة وتخلقت بأخلاقها الحميدة"[٣٠].

وقد تحدث القرآ الكريم عن النفس المطمئنة في قوله تعالى:﴿ يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى ﴿٢٩﴾ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى ﴿٣٠﴾ ﴾[الفجر: ٢٧ – ٣٠]، قال الإمام القرطبي في تفسيره لهذه الآية:" النفس المطمئنة هي: النفس الساكنة الموقنة، أيقنت أن الله ربها، فأخبتت لذلك، قاله مجاهد وغيره، وقال ابن عباس: أي المطمئنة بثواب الله، وقال الحسن البصري: إن الله تعالى إذا أراد أن يقبض روح عبده المؤمن، اطمأنت النفس إلى الله تعالى، واطمأن الله إليها، وقال عمرو بن العاص: إذا توفي المؤمن أرسل الله إليه ملكين، وأرسل معهما تحفة من الجنة، فيقولان لها: اخرجي أيتها النفس المطمئنة راضية مرضية، ومرضيا عنك، اخرجي إلى روح وريحان، ورب راض غير غضبان، وقال سعيد بن جبير: مات ابن عباس

---

(٢٩) فتاوي ابن تيمية ٢/ ٣٣٨.

(٣٠) التعريفات، للجرجاني صـ ٨١، وينظر: التوقيف على مهمات التعاريف، للمناوي صـ ٣١٦.

بالطائف، فجاء طائر لم ير على خلقته طائر قط، فدخل نعشه، ثم لم ير خارجا منه، فلما دفن تليت هذه الآية على شفير القبر- لا يدرى من تلاها- ﴿ يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴾ (٣١).

الظاهر أن النفس المطمئنة تصدق عليها كل هذه الأقوال، قال ابن عاشور في تفسيره لهذه الآية:" ولا جرم أن ذلك كله من مقومات الاطمئنان المقصود فمجموعه مراد وأجزاؤه مقصودة، ووصف النفس بـ"المطمئنة" ليس وصفا للتعريف ولا للتخصيص، أي لتمييز المخاطبين بالوصف الذي يميزهم عمن عداهم فيعرفون أنهم المخاطبون المأذونون بدخول الجنة؛ لأنهم لا يعرفون أنهم مطمئنون إلا بعد الإذن لهم بدخول الجنة، فالوصف مراد به الثناء والإيماء إلى وجه بناء الخبر، وتبشير من وجه الخطاب إليهم بأنهم مطمئنون آمنون.

ويجوز أن يكون للتعريف أو التخصيص بأن يجعل الله إلهاما في قلوبهم يعرفون به أنهم مطمئنون، والاطمئنان: مجاز في طيب النفس وعدم ترددها في مصيرها بالاعتقاد الصحيح فيهم حين أيقنوا في الدنيا بأن ما جاءت به الرسل حق فذلك اطمئنان في الدنيا ومن أثره اطمئنانهم يوم القيامة حين يرون مخائل الرضى والسعادة نحوهم ويرون ضد ذلك نحو أهل الشقاء""(٣٢) .

---

(٣١) تفسير القرطبي ٥٧/٢٠ ، باختصار.

(٣٢) التحرير والتنوير، لابن عاشور ٣٠/ ٣٤٣، باختصار وتصرف.

وقال سيد قطب في تفسيره لهذه الآية:" وفي وسط هذا الهول المروع، وهذا العذاب والوثاق، الذي يتجاوز كل تصور تنادى النفس المؤمنة المطمئنة من الملأ الأعلى: ﴿ يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴾ المطمئنة إلى ربها، المطمئنة إلى طريقها، المطمئنة إلى قدر الله بها، المطمئنة في السراء والضراء، وفي البسط والقبض، وفي المنع والعطاء، المطمئنة فلا ترتاب، والمطمئنة فلا تنحرف، والمطمئنة فلا تتلجلج في الطريق، والمطمئنة فلا ترتاع في يوم الهول الرعيب، هكذا في عطف وقرب وفي ثناء وتطمين وفي روحانية وتكريم، ﴿ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ ﴾ارجعي إلى مصدرك بعد غربة الأرض وفرقة المهد، ارجعي إلى ربك بما بينك وبينه من صلة ومعرفة ونسبة، ﴿ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴾بهذه النداوة التي تفيض على الجو كله بالتعاطف وبالرضى، ﴿ فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى ﴾ ،المقربين المختارين لينالوا هذه القربى ﴿ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى ﴾ في كنفي ورحمتي إنها عطفة تنسم فيها أرواح الجنة منذ النداء الأول"(٣٣)

فالعبد المؤمن في جهاد مستمر مع نفسه، فهو يقف أمام الرغبات المحرمة للنفس الأمارة بالسوء، ويصغي لنداء النفس اللوامة، ويستمع لها ولتوجيهاتها،

(٣٣) في ظلال القرآن، سيد قطب ٨/ ٣٧، باختصار وتصرف.

وإذا علم الله تعالى صدقه، في هذه المجاهدة، رزقه نفسا مطمئنة، وهى التي يكون عليها فلاحه نجاحه في الدنيا، وسعادته في الآخرة.

المبحث الثاني: من أمراض النفس الإنسانية وآفاتها

تحدث القرآن الكريم عن جملة من أمراض النفس الإنسانية، وهذه الأمراض مطلوب من المؤمن التعرف عليها، والعمل جاهدا من أجل التخلص منها؛ لأن بذلك صلاح نفسه ونجاته في الدنيا والآخرة، ونحن سوف نذكر أهم هذه الامراض في تسعة أمراض على النحو التالي:

المرض الأول: شح النفس

من الآيات القرآنية التي جاء فيها ذكر شح النفس قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ [الحشر: ٩]. ولكي نقف على عظمة الجيل القرآني الفريد الذي رباه نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، وكيف تخلصت نفوسهم من آفة الشح المهلكة، يحسن بنا أن نقف على سبب نزول هذه الآية التي ذكر الله فيها أن وقاية الإنسان لنفسه من الشح سبب من أسباب الفلاح، وكيف تفاعل معها الصحابة رضى الله عنهم أجمعين

سبب نزول هذه الآية

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رجلا أتى النبي صلى الله عليه وسلم فبعث إلى نسائه فقلن: ما معنا إلا الماء فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "**من يضم أو يضيف هذا**" فقال رجل من الأنصار: أنا فانطلق به إلى امرأته فقال: اكرمي ضيف رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت: ما عندنا إلا قوت صبياني فقال: هيئي طعامك، وأصبحي سراجك، ونومي صبيانك إذا أرادوا عشاء، فهيأت طعامها فأطفأت سراجها ونومت صبيانها، ثم قامت كأنها تصلح سراجها، فأطفأته فجعلا يريانه أنهما يأكلان، فباتا طاويين فلما أصبح غدا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال:" **ضحك الله الليلة أو عجب من فعالكما**" فأنزل الله: ﴿ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ [الحشر: ٩].

هذه الآية تبين لنا أن النجاة من الشح سببا من أسباب الفلاح والنجاح في الدنيا والآخرة، وقد ذكر الإمام الشوكاني الأقوال الواردة في هذه الآية والتي تبين المراد بشح الانفس، حيث قال:" قال مقاتل:﴿ شُحَّ نَفْسِهِۦ ﴾: حرص نفسه، وقال سعيد بن جبير: شح النفس هو أخذ الحرام، ومنع الزكاة، وقال ابن زيد: من لم يأخذ شيئا نهاه الله عنه، ولم يمنع شيئا أمره الله بأدائه، فقد وقى شح نفسه، وقال طاووس: الشح أن يشح بما في أيدي الناس، ويحب أن يكون له ما في أيديهم، وقال ابن عيينة: الشح: الظلم، وقال الليث: ترك

الفرائض وانتهاك المحارم، والظاهر من الآية أن الفلاح مترتب على عدم شح النفس بشيء من الأشياء التي يقبح الشح بها شرعا من زكاة، أو صدقة، أو صلة رحم أو نحو ذلك، كما تفيده إضافة الشح إلى النفس، والإشارة بقوله : ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ﴾إلى"من" باعتبار معناها، وهو مبتدأ، وخبره﴿هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ والفلاح الفوز والظفر بكل مطلوب"[٣٤].

ومن الآيات القرآنية التي تحدثت عن شح الأنفس قوله تعالى:﴿وَإِنِ ٱمْرَأَةٌ خَافَتْ مِنۢ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا ۚ وَٱلصُّلْحُ خَيْرٌ ۗ وَأُحْضِرَتِ ٱلْأَنفُسُ ٱلشُّحَّ ۚ وَإِن تُحْسِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ [النساء: ١٢٨]، وهذه الآية تؤكد على أن الشح صفة مستقرة في النفس الإنسانية، وأن النفوس مجبولة على ذلك، وأن هذا الشح يظهر جليا عند حدوث بعض المشكلات الاجتماعية في المجتمع أوفي داخل أفراد الأسرة، وخاصة بين الزوجين.

سبب نزول هذه الآية

عن سعيد بن المسيب أن ابنة محمد بن مسلمة كانت عند رافع بن خديج فكره منها امرا، فأراد طلاقها فقالت: لا تطلقني واقسم لي ما بدا ذلك فأنزل

([٣٤]) فتح القدير، للشوكاني٧/ ١٩٠، باختصار.

الله ﴿ وَإِنِ ٱمۡرَأَةٌ خَافَتۡ ﴾، وعن سعيد بن جبير قال جاءت امرأة حين نزلت هذه الآية ﴿ وَإِنِ ٱمۡرَأَةٌ خَافَتۡ مِنۢ بَعۡلِهَا نُشُوزًا أَوۡ إِعۡرَاضًا ﴾ قالت: إني أريد أن تقسم لي من نفقتك وقد كانت رضيت أن يدعها فلا يطلقها ولا يأتيها فأنزل الله ﴿ وَأُحۡضِرَتِ ٱلۡأَنفُسُ ٱلشُّحَّۚ ﴾[٣٥].

وعن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها قالت في هذه الآية:﴿ وَإِنِ ٱمۡرَأَةٌ خَافَتۡ مِنۢ بَعۡلِهَا نُشُوزًا أَوۡ إِعۡرَاضًا ﴾ قالت الرجل تكون عنده المرأة ليس بمستكثر منها يريد أن يفارقها فتقول: أجعلك من شأني في حل، فنزلت هذه الآية في ذلك"[٣٦].

قال الإمام الشوكاني في تفسيره لهذه الآية:" قوله تعالى:﴿ وَأُحۡضِرَتِ ٱلۡأَنفُسُ ٱلشُّحَّۚ ﴾ إخبار منه سبحانه وتعالى: بأن الشح في كل الأنفس الإنسانية كائن، وأنه جعل كأنه حاضر لها لا يغيب عنها بحال من الأحوال وأن ذلك بحكم الجبلة والطبيعة، فالرجل يشح بما يلزمه للمرأة من حسن العشرة وحسن النفقة ونحوها، والمرأة تشح على الرجل بحقوقها اللازمة للزوج، فلا تترك له

([٣٥]) لباب النقول، للسيوطي صـ ٧٣، باختصار وينظر: أسباب النزول للواحدي صـ ١٨٨.

([٣٦]) صحيح البخاري برقم(٢٢٧٠).

شيئا منها، وشح الأنفس: بخلها بما يلزمها أو يحسن فعله بوجه من الوجوه"[٣٧]

فإذا شح كلا من الزوجين بحقوقه الناتجة لهما عن العلاقة الزوجية، ولم يتخلصا من شح النفوس في هذا الجانب، فإن هذا الأمر قد يؤدي إلى انهيار العلاقة الأسرية لا قدَّر الله تعالى.

ومن الآيات القرآنية التي تحدثت عن شح الأنفس قوله تعالى:﴿ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُمۡ وَٱسۡمَعُواْ وَأَطِيعُواْ وَأَنفِقُواْ خَيۡرٗا لِّأَنفُسِكُمۡۗ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفۡسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴾[التغابن: ١٦].

هذه الآية تبين أن إنفاق الإنسان مما آتاه الله تعالى، في وجوه الخير من أسباب النجاة من آفة الشح ومن أسباب فلاحها كذلك، قال الشيخ المراغي في تفسيره لهذه الآية:" قوله تعالى:﴿ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُمۡ ﴾ أي ابذلوا فى تقواه جهدكم وطاقتكم،﴿وَٱسۡمَعُواْ وَأَطِيعُواْ ﴾ أي كونوا منقادين لما يأمركم الله ورسوله به، ولا تحيدوا عنه يمنة ولا يسرة، ولا ترتكبوا ما نهيتم عنه،﴿وَأَنفِقُواْ خَيۡرٗا لِّأَنفُسِكُمۡۗ ﴾ أي وابذلوا مما رزقكم الله على الفقراء والمساكين وذوى الحاجات، وفى الوجوه التي يكون فيها صلاح الأمة والملة، وسعادة الدين والدنيا، وذلك خير لأنفسكم من الأموال والأولاد وهذا حث على

---

(٣٧) فتح القدير، للشوكاني ١/ ٦٠١.

البذل، وبيان أن الامتثال خير لا محالة، ثم زاد فى الحث على الإنفاق فقال: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ أي: ومن يبتعد عن البخل والحرص على المال يكن من الفائزين بكل ما يرجو، ونيل كل ما يبغي فى دينه ودنياه، فيكون محببا إلى الناس، قرير العين برضاهم عنه وحنوهم عليه، سعيدا فى الآخرة بالقرب من ربه ومحبته ورضوانه ودخول جناته"(٣٨).

وللشيخ الشنقيطي لفته لطيفة حول سر اقتران الشح بالآيات المتعلقة بالأحوال الأسرية، وذلك في سورتي النساء والتغابن، فقال رحمه الله تعالى:" قوله تعالى: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾، الشح منتهى البخل، وإن ذكره هنا بعد قضايا الأزواج والأولاد وفتنتهم وعداوتهم، يُشْعر بأن أكثر قضايا الزوجية منشؤها من جانب المال حرصا عليه أو بخلا به، حرصا عليه بالسعي إليه بسببهم، فقد يفتن في ذلك، وشحا به بعد تحصيله فقد يعادونه فيه، والعلاج الناجع في ذلك كله الإنفاق وتوقي الشح، والشح من جبلة النفس ﴿وَأُحْضِرَتِ ٱلْأَنفُسُ ٱلشُّحَّۚ﴾ [النساء: ١٢٨] وفي إضافة الشح إلى النفس مع إضافة الهداية إلى القلب سر لطيف، وهو أن الشح جبلة البشرية، والهداية منحة إلهية، والأولى قوة حيوانية، والثانية قوة روحية، فعلى المسلم

(٣٨) تفسير المراغي ١٣١/٢٨، باختصار يسير.

أن يغالب بالقوة الروحية ما جبل عليه من قوة بشرية لينال الفلاح والفوز، كما أشار تعالى بقوله: ﴿ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ [٣٩].

فالشح آفة من آفات النفس الانسانية، ولكي بتخلص الانسان منه لابد له من مجاهدة لنفسة، وأن يعود نفسه على البذل والعطاء في المواطن التي يحبها الله تعالى ويرضاها.

([٣٩]) أضواء البيان، للشنقيطي ٣٣٠/٨، باختصار، وتصرف يسير.

تحذير النبي صلى الله عليه وسلم من الشح

ولخطورة آفة الشح على النفس الإنسانية والمجتمع الإنساني فقد وردت جملة من الأحاديث النبوية تحذر من هذه الآفة، ومن هذه الأحاديث، عن جابر بن عبد الله أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:" **اتقوا الظلم فإن الظلم ظلمات يوم القيامة، واتقوا الشح فإن الشح أهلك من كان قبلكم، حملهم على أن سفكوا دماءهم واستحلوا محارمهم**"[٤٠]، قال الإمام النووي في شرحه لهذا الحديث:" قوله صلى الله عليه وسلم: "**واتقوا الشح فإن الشح أهلك من كان قبلكم**"، قال القاضي:" يحتمل أن هذا الهلاك هو الهلاك الذي أخبر به في الدنيا، بأنهم سفكوا دماءهم، ويحتمل أنه هلاك الآخرة، وهذا الثاني أظهر، ويحتمل أنه أهلكهم في الدنيا والآخرة "[٤١] .

وعن عبد الله بن عمرو قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:" **إياكم والشح، فإنما هلك من كان قبلكم بالشح، أمرهم بالبخل فبخلوا، وأمرهم بالقطيعة فقطعوا، وأمرهم بالفجور ففجروا** "[٤٢]، قال الإمام الخطابي في شرحه لهذا الحديث:" الشح عام وهو كالوصف اللازم للإنسان من قبل الطبع والجبلة، وقال بعضهم: البخل أن يَضُنَّ بمال والشح أن يبخل بماله

---

(٤٠) صحيح مسلم، برقم(٤٦٧٥).

(٤١) شرح صحيح مسلم، للنووي٨/ ٣٨٥.

(٤٢) صحيح أبي داوود، برقم(١٤٨٩).

وبمعروفه، قلت: الشح أبلغ في المنع من البخل وإنما الشح بمنزلة الجنس والبخل بمنزلة النوع، وأكثر ما يقال البخل إنما هو في إفراد الأمور وخواص الأشياء، والفجور ههنا الكذب، وأصل الفجور الميل والانحراف عن الصدق ويقال للكاذب قد فجر: أي انحرف عن الصدق"[٤٣].

فليحذر المسلم من شح نفسه وليحرص على مجاهدة نفسه من أجل التخلص من هذا الخلق الذميم.

([٤٣]) شرح سنن أبي داوود، للخطابي ١/ ٣٥١، بتصرف يسير.

المرض الثاني: النفاق

النفاق من أمراض النفس الخطيرة التي تفتك بصاحبها في الدنيا والآخرة وتورده موارد التهلكة والعذاب، فصاحب النفاق يعيش في انفصام نكد بين ما يظهره للناس من إسلام وايمان، وبين ما يبطنه من كفر ونفاق، ويظن المنافقون أهم بسلوكهم هذا سوف يخدعون الله والذين آمنوا، وفي الحقيقة هم يخدعون أنفسهم وما يشعرون أن عاقبة طريقهم الذي سلكوه هو الخزي في الدنيا والعذاب في الآخرة، وقد تحدث القرآن عن النفاق ووصفه بأنه خداع لنفس صاحبه، قبل أن يخدع غيره وإن كان لا يشعر بذلك، قال تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ ﴿١٠﴾ ﴾ [البقرة: ٨ – ١٠].

وقد تنوعت عبارات المفسرين في معنى هذه الآية، قال الإمام ابن كثير:"

نبه الله سبحانه وتعالى على صفات المنافقين؛ لئلا يغتر بظاهر أمرهم المؤمنون، فيقع بذلك فساد عريض من عدم الاحتراز منهم، ومن اعتقاد إيمانهم، وهم كفار في نفس الأمر، وهذا من المحذورات الكبار، أن يظن بأهل الفجور خير، فقال تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ﴾أي:يقولون ذلك قولاً ليس وراءه شيء آخر، وقوله

تعالى:﴿ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ أي: بإظهارهم ما أظهروه من الإيمان مع إسرارهم الكفر، يعتقدون بجهلهم أنهم يخدعون الله بذلك، وأن ذلك نافعهم عنده، وأنه يروج عليه كما يروج على بعض المؤمنين؛ ولهذا قابلهم على اعتقادهم ذلك بقوله: ﴿ وَمَا يَخۡدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمۡ وَمَا يَشۡعُرُونَ ﴾ يقول: وما يغرون بصنيعهم هذا ولا يخدعون إلا أنفسهم، وما يشعرون بذلك من أنفسهم.

لما كان أمر المنافقين يشتبه على كثير من الناس أطنب في ذكرهم بصفات متعددة، كل منها نفاق، تعريفا لأحوالهم لِتُجْتَنَب، ويُجْتَنَبْ من تلبس بها أيضا، وإنما نزلت صفات المنافقين في السور المدنية؛ لأن مكة لم يكن فيها نفاق، بل كان خلافه، من الناس من كان يظهر الكفر مستكرها، وهو في الباطن مؤمن، فلما هاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة، وكان بها الأنصار من الأوس والخزرج، وكانوا في جاهليتهم يعبدون الأصنام، على طريقة مشركي العرب، وبها اليهود من أهل الكتاب على طريقة أسلافهم، وكانوا ثلاث قبائل: بنو قينقاع حلفاء الخزرج، وبنو النضير، وبنو قريظة حلفاء الأوس، فلما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة، وأسلم من أسلم من الأنصار من قبيلتي الأوس والخزرج، وقلَّ من أسلم من اليهود إلاَّ عبد الله بن سلام، رضي الله عنه، ولم يكن إذ ذاك نفاق أيضا؛ لأنه لم يكن للمسلمين بعد شوكة تخاف، بل قد كان، عليه الصلاة والسلام، وادع اليهود وقبائل كثيرة من أحياء العرب حوالي المدينة، فلما كانت وقعة

بدر العظمى وأظهر الله كلمته، وأعلى الإسلام وأهله، قال عبد الله بن أبي بن سلول، وكان رأسا في المدينة، وهو من الخزرج، وكان سيد الطائفتين في الجاهلية، وكانوا قد عزموا على أن يملكوه عليهم، فجاءهم الخير وأسلموا، واشتغلوا عنه، فبقي في نفسه من الإسلام وأهله، فلما كانت وقعة بدر قال: هذا أمر قد توجه فأظهر الدخول في الإسلام، ودخل معه طوائف ممن هو على طريقته ونحلته، وآخرون من أهل الكتاب، فمن ثم وجد النفاق في أهل المدينة ومن حولها من الأعراب، فأما المهاجرون فلم يكن فيهم أحد؛ لأنه لم يكن أحد يهاجر مكرها، بل يهاجر ويترك ماله، وولده، وأرضه رغبة فيما عند الله في الدار الآخرة "[٤٤].

وقال الإمام ابن جرير:" سمي الله تعالى المنافق مخادعا لله وللمؤمنين، بإظهاره ما أظهر بلسانه تقية، مما تخلص به من القتل والسبي والعذاب العاجل، وهو لغير ما أظهر مستبطن؛ وذلك من فعله وإن كان خداعا للمؤمنين في عاجل الدنيا فهو لنفسه بذلك من فعله خادع؛ لأنه يظهر لها بفعله ذلك بها أنه يعطيها أمنيتها، ويسقيها كأس سرورها، وهو موردها به حياض عطبها، ومجرعها به كأس عذابها، ومزيرها من غضب الله وأليم عقابه ما لا قِبَلَ لها به، فذلك خديعته نفسه، ظنا منه أنه إليها محسن، كما قال جل ثناؤه: ﴿ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴾، إعلاما منه عباده

([٤٤]) تفسير ابن كثير ١/ ١٧٦، بتصرف واختصار.

المؤمنين أن المنافقين بإساءتهم إلى أنفسهم في إسخاطهم ربهم بكفرهم وشكهم وتكذيبهم غير شاعرين ولا دارين، ولكنهم على عمياء من أمرهم مقيمون"[٤٥].

وقد تكلم العلامة ابن القيم بكلام نفس عن المنافقين نثبت معظمه هنا لنفاسته ولأهميته، قال رحمه الله تعالى:" وبلية المسلمين بالمنافقين أعظم من بليتهم بالكفار المجاهرين، ولهذا قال تعالى فى حقهم: ﴿ هُمُ ٱلْعَدُوُّ فَٱحْذَرْهُمْ ۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ ۖ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾ [المنافقون: ٤]، ومثل هذا اللفظ يقتضى الحصر، أى لا عدو إلا هم، ولكن لم يرد هاهنا حصر العداوة فيهم وأنهم لا عدو للمسلمين سواهم بل هذا من إثبات الأولوية والأحقية لهم فى هذا الوصف، وأنه لا يتوهم بانتسابهم إلى المسلمين ظاهرا وموالاتهم لهم ومخالطتهم إياهم أنهم ليسوا بأعدائهم، بل هم أحق بالعداوة ممن باينهم فى الدار، ونصب لهم العداوة وجاهرهم بها، فإن ضرر هؤلاء المخالطين لهم المعاشرين لهم أشد عليهم من ضرر من جاهرهم بالعداوة وألزم وأدوم؛ لأن الحرب مع أولئك ساعة أو أياما ثم ينقضى ويعقبه النصر والظفر، وهؤلاء معهم فى الديار والمنازل صباحا ومساء، يدلون العدو على عوراتهم ويتربصون بهم الدوائر ولا يمكنهم مناجزتهم، فهم أحق بالعداوة من المباين المجاهر، فلهذا قيل: ﴿ هُمُ ٱلْعَدُوُّ

([٤٥]) تفسير الطبري ١/ ٢٧٣، باختصار.

﴿ فَٱحۡذَرۡهُمۡۚ ﴾، لا على معنى أنه لا عدو لكم سواهم، بل على معنى أنهم أحق بأن يكونوا لكم عدوا من الكفار المجاهرين.

وقد ذم الله تعالى المنافقين غاية الذم وكشف عوراتهم وقبحهم وفضحهم، وأخبر أنهم هم السفهاء المفسدون فى الأرض المخادعون المستهزئون المغبونون فى اشترائهم الضلالة بالهدى، وأنهم صم بكم عمى فهم لا يرجعون، وأنهم مرضى القلوب وأن الله يزيدهم مرضا إلى مرضهم، فلم يدع ذما ولا عيبا إلا ذمهم به، وهذا يدل على شدة مقته سبحانه لهم، وبغضه إياهم، وعداوته لهم، وأنهم أبغض أعدائه إليه، فظهرت حكمته الباهرة فى تخصص هذه الطبقة بالدرك الأسفل من النار.

ومن تأمل ما وصف الله به المنافقين فى القرآن من صفات الذم علم أنهم أحق بالدرك الأسفل من النار، فإنه وصفهم بمخادعته ومخادعة عباده، والمقصود أن هذه الطبقة أشقى الأشقياء، ولهذا يستهزأ بهم فى الآخرة، وتتم مخادعتهم في الآخرة؛ كما كانوا يظنون أنهم يخدعون الله والمؤمنين في الدنيا، وتعطون نورا يتوسطون به على الصراط ثم يطفيءُ الله نورهم ويقال لهم:﴿ ٱرۡجِعُواْ وَرَآءَكُمۡ فَٱلۡتَمِسُواْ نُورٗا ﴾ [الحديد: ١٣]، ويضرب بينهم وبين المؤمنين بسور، كما قال تعالى: ﴿ فَضُرِبَ بَيۡنَهُم بِسُورٖ لَّهُۥ بَابُۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحۡمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلۡعَذَابُ ١٣ يُنَادُونَهُمۡ أَلَمۡ نَكُن مَّعَكُمۡۖ قَالُواْ بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمۡ فَتَنتُمۡ أَنفُسَكُمۡ وَتَرَبَّصۡتُمۡ وَٱرۡتَبۡتُمۡ وَغَرَّتۡكُمُ ٱلۡأَمَانِيُّ حَتَّىٰ جَآءَ أَمۡرُ ٱللَّهِ وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلۡغَرُورُ ١٤ ﴾ [الحديد: ١٣]، وهذا أشد ما يكون من الحسرة

والبلاء أن يفتح للعبد طريق النجاة والفلاح، حتى إذا ظن أنه ناج ورأى منازل السعداء اقتطع عنهم وضربت عليه الشقوة ونعوذ بالله من غضبه وعقابه[٤٦] .

وهم قوم أظهروا الإسلام ومتابعة الرسل، وأبطنوا الكفر ومعاداة الله ورسوله وهؤلاء المنافقون، وهم فى الدرك الأسفل من النار، قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴾[النساء: ١٤٥]، فالكفار المجاهرون بكفرهم أخف، وهم فوقهم فى دركات النار؛ لأن الطائفتين اشتركتا فى الكفر ومعاداة الله ورسله وزاد المنافقون عليهم بالمخادعة والنفاق.

وإنما كانت هذه الطبقة فى الدرك الأسفل؛ لغلظ كفرهم، فإنهم خالطوا المسلمين وعاشروهم، وباشروا من أعلام الرسالة وشواهد الإيمان ما لم يباشره البعداء، ووصل إليهم من معرفته وصحته ما لم يصل إلى المنابذين بالعداوة، فإذا كفروا مع هذه المعرفة والعلم كانوا أغلظ كفرا وأخبث قلوبا، وأشد عداوة

---

(٤٦) وقد جاء في ذلك حديث يوضح هذا المعنى ويقربه، فعن جابر بن عبد الله أنه سُئل عن الورود فقال: نجيء نحن يوم القيامة عن كذا وكذا، انظر أي ذلك فوق الناس قال فتدعى الأمم بأوثانها وما كانت تعبد الأول فالأول، ثم يأتينا ربنا بعد ذلك فيقول: من تنظرون؟ فيقولون: ننظر ربنا فيقول: أنا ربكم فيقولون حتى ننظر إليك، فيتجلى لهم يضحك قال: فينطلق بهم ويتبعونه ويعطى كل إنسان منهم منافق أو مؤمن نورا ثم يتبعونه، وعلى جسر جهنم كلاليب وحسك تأخذ من شاء الله، ثم يطفأ نور المنافقين ثم ينجو المؤمنون، فتنجو أول زمرة وجوههم كالقمر ليلة البدر سبعون ألفا لا يحاسبون ثم الذين يلونهم كأضوإ نجم في السماء، ثم كذلك ثم تحل الشفاعة ويشفعون حتى يخرج من النار من قال لا إله إلا الله وكان في قلبه من الخير ما يزن شعيرة، فيجعلون بفناء الجنة ويجعل أهل الجنة يرشون عليهم الماء حتى ينبتوا نبات الشيء في السيل ويذهب حراقه ثم يسأل حتى تجعل له الدنيا وعشرة أمثالها معها" صحيح مسلم برقم(٢٧٨).

لله ولرسوله وللمؤمنين من البعداء عنهم، وإن كان البعداء متصدين لحرب المسلمين، ووصف قلوبهم بالمرض وهو مرض الشبهات والشكوك، ووصفهم بالإفساد فى الأرض وبالاستهزاء بدينه وبعباده، وبالطغيان، واشتراء الضلالة بالهدى والصمم والبكم والعمى والحيرة والكسل عند عبادته، وقلة ذكره، والتردد والتذبذب بين المؤمنين والكفار، فلا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء، والحلف باسمه تعالى كذبا وباطلا وبالكذب وبغاية الجبن، وبعدم الفقه فى الدين وبعدم العلم،[٤٧].

فإذا علم المؤمن خطورة المخادعة والنفاق على دنياه وآخرته، ابتعد عنهما وعن كل الأسباب المؤدية إليه؛ ذلك أن عواقبهما وخيمة في الدنيا والآخرة، وهما من أخطر أمراض النفس الإنسانية.

([٤٧]) صفات المنافقين، لابن القيم ١/ ٣٩ بتصرف واختصار.

المرض الثالث: الوسوسة

وقد تحدث القرآن الكريم عن هذا المرض من أمراض النفس الإنسانية في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾[ق: ١٦]، قال الإمام القرطبي في تفسيره لهذه الآية:" قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ﴾ يعني الناس، وقيل آدم، ﴿وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ﴾ أي ما يختلج في سره وقلبه وضميره، وفي هذا زجر عن المعاصي التي يستخفي بها، والوسوسة حديث النفس بمنزلة الكلام الخفي، ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾ هو حبل العاتق وهو ممتد من ناحية حلقه إلى عاتقه، وهما وريدان عن يمين وشمال، وهذا تمثيل للقرب، أي ونحن أعلم بما توسوس به نفسه من حبل وريده الذي هو من نفسه، لأنه عرق يخالط القلب، فعلم الرب أقرب إليه من علم القلب، وهذا القرب قرب العلم والقدرة"[٤٨].

الشيطان الرجيم هو السبب الرئيس الباعث على الوسوسة للنفس والداعي لها إلى الضلالة والغواية، وقد قصَّ الله تعالى لنا في كتابه الكريم قصة الوسوسة الأولى لأبينا آدم من قبل إبليس عندما كان في الجنة؛ لكي يحذر أبناؤه من بعده هذه الوسوسة قال تعالى: ﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ

([٤٨]) تفسير القرطبي١٧/ ٨، باختصار يسير.

هَلۡ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلۡخُلۡدِ وَمُلۡكٖ لَّا يَبۡلَىٰ ﴿١٢٠﴾ فَأَكَلَا مِنۡهَا فَبَدَتۡ لَهُمَا سَوۡءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخۡصِفَانِ عَلَيۡهِمَا مِن وَرَقِ ٱلۡجَنَّةِۚ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾ ثُمَّ ٱجۡتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيۡهِ وَهَدَىٰ ﴾[طه: ١٢٠ – ١٢٢]، قال الشيخ الشنقيطي في تفسيره لهذه الآية:" ﴿ فَوَسۡوَسَ إِلَيۡهِ ﴾ أي كلمه كلاما خفيا فسمعه منه آدم وفهمه، فقال له:" ﴿هَلۡ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلۡخُلۡدِ وَمُلۡكٖ لَّا يَبۡلَىٰ ﴾، والفاء في قوله تعالى: ﴿ فَبَدَتۡ لَهُمَا سَوۡءَٰتُهُمَا ﴾ تدل على أن سبب ذلك هو أكلهما من الشجرة المذكورة، فكانت وسوسة الشيطان سببا للأكل من تلك الشجرة، وكان الأكل منها سببا لبدو سوءاتهما، وقد دلت الآيات المذكورة على أن آدم وحواء كانا في ستر من الله يستر به سوءاتهما، وأنهما لما أكلا من الشجرة التي نهاهما ربهما عنهما انكشف ذلك الستر بسبب تلك الزلة، فبدت سوءاتهما أي عوراتهما، وسميت العورة سوءة؛ لأن انكشافها يسوء صاحبها، وصارا يحاولان ستر العورة بورق شجر الجنة، كما قال هنا:﴿وَطَفِقَا يَخۡصِفَانِ عَلَيۡهِمَا مِن وَرَقِ ٱلۡجَنَّةِۚ ﴾، أي: شرعا يلزقان عليهما من ورق الجنة بعضه ببعض ليسترا به عوراتهما، وقوله تعالى:﴿ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ ﴾ أي لم يطعه في اجتناب ما نهاه عنه مِن قُربان تلك الشجرة، وقوله: ﴿فَغَوَىٰ ﴾ الغي: الضلال، وهو الذهاب عن طريق

الصواب ﴿ ثُمَّ ٱجۡتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيۡهِ وَهَدَىٰ ﴾ أي: ثم بعد ما صدر مِن آدم بمهلة اصطفاه ربه واختاره فتاب عليه وهداه إلى ما يُرضيه [٤٩].

الوسواس الخناس

الوسوسة الحاصلة في نفوس بني آدم سببها وسوسة الشيطان التي يلقها في النفوس؛ لهذا أمرنا الله تعالى أن نستعيذ به من شر وسوسة الشيطان التي يلقيها فقال تعالى: ﴿ قُلۡ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝١ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ۝٢ إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ ۝٣ مِن شَرِّ ٱلۡوَسۡوَاسِ ٱلۡخَنَّاسِ ۝٤ ٱلَّذِي يُوَسۡوِسُ فِي صُدُورِ ٱلنَّاسِ ۝٥ مِنَ ٱلۡجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ ۝٦ ﴾ [الناس: ١ – ٦]، قال الإمام ابن كثير في تفسيره لهذه الآية:" هذه ثلاث صفات من صفات الرب، عز وجل؛ الربوبية، والملك، والإلهية، فهو رب كل شيء ومليكه وإلهه، فأمر المستعيذ أن يتعوذ بالمتصف بهذه الصفات، من شر الوسواس الخناس، وهو الشيطان الموكل بالإنسان، قال ابن عباس في قوله تعالى: ﴿ ٱلۡوَسۡوَاسِ ٱلۡخَنَّاسِ ﴾ قال: الشيطان جاثم على قلب ابن آدم، فإذا غفل وسوس، فإذا ذكر الله خنس،

([٤٩]) أضواء البيان، للشنقيطي ٤/ ١٨٢باختصار.

وقوله تعالى:﴿ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ ﴾ تفسير للذي يوسوس في صدور الناس، من شياطين الإنس والجن، (٥٠).

وقال العلامة ابن القيم في تفسير قوله تعالى:"﴿ ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ﴾ قال:" ذكر الله تعالى وسوسة الشيطان أولا؛ لأن وسوسته أصل كل معصية وبلاء؛ فلهذا وصفه بها لتكون الإستعاذة من شرها أهم من كل مستعاذ منه، وإلا فشره بغير الوسوسة حاصل أيضا، ثم ذكر محلها ثانيا، وأنها في صدور الناس ثالثا: جعل الله للشيطان دخولا في جوف العبد ونفوذا إلى قلبه وصدره، فهو يجري منه مجرى الدم، وقد وكل بالعبد فلا يفارقه إلى الممات، وتأمل حكمة القرآن وجلالته كيف أوقع الإستعاذة من شر الشيطان الموصوف بأنه﴿ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ ۝٤ ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ﴾ ولم يقل: من شر وسوسته: لتعم الإستعاذة شره جميعه، فإن قوله:﴿ مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ﴾ كل شره، ووصفه بأعظم صفاته وأشدها شرا، وأقواها تأثيرا وأعمها فسادا، وهي الوسوسة التي هي مبادئ الإرادة، فإن القلب يكون فارغا من الشر والمعصية فيوسوس إليه، ويخطر الذنب بباله، فيصوره لنفسه ويمنيه، حتى تميل نفسه إليه فيصير إرادة، ثم لا يزال يمثل له ويخيل ويمنى ويشهى وينسى علمه بضررها، ويطوى عنه سوء عاقبتها، فيحول بينه وبين

---

(٥٠) تفسير ابن كثير ٨/ ٥٣٩، باختصار.

مطالعته، فلا يرى إلا صورة المعصية والتذاذه بها فقط، وينسى ما وراء ذلك، فتصير الإرادة عزيمة جازمة، فيشتد الحرص عليها من القلب، فيبعث الجنود في الطلب، فيبعث الشيطان معهم مددا لهم وعونا، فإن فتروا حركهم. وإن ونوا أزعجهم، كما قال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّآ أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا ﴾[مريم: ٨٣] أي تزعجهم إلى المعاصي إزعاجا، كلما فتروا أو ونوا أزعجتهم الشياطين وأزتهم وأثارتهم، فلا تزال بالعبد تقوده إلى الذنب، وتنظم شمل الاجتماع بألطف حيلة وأتم مكيدة"[٥١]

(٥١) التفسير القيم، لابن القيم صـ ٦٧٢، باختصار، وتصرف يسير.

مواطن يوسوس فيها الشيطان

ومما ينبغي أن يُعلم أن كل واحد من بني آدم قد وكل به قرينه من الشياطين يوسوس له، فعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:" **ما منكم من أحد إلا وقد وكل به قرينه من الجن** قالوا وإياك يا رسول الله قال: "**وإياي إلا أن الله أعانني عليه فأسلم، فلا يأمرني إلا بخير** " [٥٢]، قال الإمام مسلم في شرحه لهذا الحديث:" " **فأسلم** " برفع الميم وفتحها، وهما روايتان مشهورتان فمن رفع "**فأسلمُ**" قال: معناه: أسلم أنا من شره وفتنته، ومن فتح "**فأسلمَ**" قال: إن القرين أسلم، من الإسلام وصار مؤمنا لا يأمرني إلا بخير، واختلفوا في الأرجح منهما فقال الخطابي: الصحيح المختار الرفع، ورجح القاضي عياض، الفتح وهو المختار، لقوله: " **فلا يأمرني إلا بخير** ، واختلفوا على رواية الفتح ، قيل: أسلم بمعنى استسلم وانقاد، وقد جاء هكذا في غير صحيح مسلم " **فاستسلم** " وقيل: معناه صار مسلما مؤمنا، وهذا هو الظاهر، قال القاضي: واعلم أن الأمة مجتمعة على عصمة النبي صلى الله عليه وسلم من الشيطان في جسمه وخاطره ولسانه، وفي هذا الحديث: إشارة إلى التحذير من فتنة القرين ووسوسته وإغوائه ، فأعلمنا بأنه معنا لنحترز منه بحسب الإمكان"[٥٣].

([٥٢]) صحيح مسلم برقم(٥٠٣٤).

([٥٣]) شرح صحيح مسلم، للنووي ٩/ ١٩٥.

وقد بيَّن لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم بعض المواطن التي يوسوس فيها الشيطان، ومن هذه المواطن:

أولا: وسوسته من أجل إفساد العلاقات الاجتماعية

فعن عن علي بن الحسين أن صفية بنت حيي زوج النبي صلى الله عليه وسلم أخبرته أنها جاءت رسول الله صلى الله عليه وسلم تزوره وهو معتكف في المسجد في العشر الغوابر من رمضان، فتحدثت عنده ساعة من العشاء ثم قامت تنقلب فقام معها النبي صلى الله عليه وسلم يقلبها حتى إذا بلغت باب المسجد الذي عند مسكن أم سلمة زوج النبي صلى الله عليه وسلم، مر بهما رجلان من الأنصار فسلما على رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم نفذا فقال لهما رسول الله صلى الله عليه وسلم:" **على رسلكما، إنما هي صفية بنت حُيَي**" قالا سبحان الله يا رسول الله وكبر عليهما ما قال، فقال:" **إن الشيطان يجري من ابن آدم مبلغ الدم، وإني خشيت أن يقذف في قلوبكما**"(٥٤).

(٥٤) صحيح البخاري برقم(٥٧٥١).

ثانياً وسوسته لإلقاء الشبهات

وذلك للتشكيك بالإيمان بالله تعالى، فعن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "**يأتي الشيطان أحدكم فيقول: من خلق كذا؟ من خلق كذا؟ حتى يقول: من خلق الله؟ فمن وجد ذلك فليستعذ بالله ولينته**"[٥٥] .

وعن ابن عباس قال جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال يا رسول الله إن أحدنا يجد في نفسه يعرض بالشيء لأن يكون حممة أحب إليه من أن يتكلم به فقال :"**الله أكبر الله أكبر الله أكبر، الحمد لله الذي رد كيده إلى الوسوسة** "[٥٦]

ثالثاً: وسوسته للمصلين في صلاتهم

وذلك بقصد إفساد صلاتهم: فعن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:" **إذا نودي بالأذان أدبر الشيطان له ضراط، حتى لا يسمع الأذان فإذا قضي الأذان أقبل، فإذا ثوب بها أدبر فإذا قضي التثويب أقبل يخطر بين المرء ونفسه يقول: اذكر كذا اذكر كذا، لما لم يكن يذكر حتى يظل الرجل إن يدري كم صلى، فإذا لم يدر أحدكم كم صلى، فليسجد سجدتين**

([٥٥]) صحيح البخاري برقم(٣٠٣٤).

([٥٦]) صحيح أبي داوود برقم(٥١١٢).

وهو جالس"[٥٧]، وعن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال:" **إن الشيطان إذا سمع النداء بالصلاة أحال له ضراط حتى لا يسمع صوته، فإذا سكت رجع فوسوس، فإذا سمع الإقامة ذهب حتى لا يسمع صوته فإذا سكت رجع فوسوس**"[٥٨].

فليحذر المسلم من وسوسة الشيطان، وليجاهد نفسه في طاعة ربه، وإن وسوس له شيطانه وأوقعه في بعض الذنوب والمعاصي فيبادر بالتوبة والإنابة إلى الله تعالى.

([٥٧]) صحيح مسلم برقم(٨٨٤).

([٥٨]) صحيح مسلم برقم(٥٨٢).

المرض الرابع: اتباع الهوى

أوجد الله في النفس الإنسانية أهواء متعددة ورغبات متنوعة، وطلب منا تبارك وتعالى أن تكون هذه الأهواء والرغبات منقاده لشرعه سبحانه وتعالى؛ ذلك أن الإنسان إذا لم يجعل أهواءه ورغباته منقادة لشرع الله تعالى فإنها سوف تقوده إلى أودية الهلال والضلال، من رحمة الله تعالى بالبشرية أنه أرسل لها رسلا بين فترة وأخرى، ومهمة الرسل هى إخراج البشرية من الأهواء إلى نور الحق والهداية، ومن الأمم التي بعث الله فيها رسلا كثير بني إسرائيل[٥٩]؛ وذلك بسبب كثرة فسادهم وسرعة انحرافهم عن منهاج الله تعالى، وقد تعامل بنوا إسرائيل مع أنبياء الله ورسله وفق ما تمليه عليه أهواؤهم ورغباتهم النفسية، فإن وافقت دعوة الرسل أهواءهم ورغباتهم النفسية آمنوا بهم، وإن خالفت دعوة الأنبياء والمرسلين رغباتهم أنفسهم وأمزجتهم استكبروا عن متابعتهم والإيمان بهم وكذبوهم، بل وصلهم بهم الأمر إلى قتل بعض أنبياء الله ورسله، وهو ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَقَفَّيْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ بِٱلرُّسُلِ ۖ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ ۗ أَفَكُلَّمَا

---

(٥٩) عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: " **كانت بنو إسرائيل تسوسهم الأنبياء، كلما هلك نبي خلفه نبي، وإنه لا نبي بعدي، وسيكون خلفاء فيكثرون، قالوا: فما تأمرنا؟ قال: فوا ببيعة الأول فالأول وأعطوهم حقهم، فإن الله سائلهم عما استرعاهم**" صحيح البخاري برقم(٣١٩٦).

﴿ جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴾ [البقرة: ٨٧]، قال سيد قطب في تفسيره لهذه الآية:" قصَّ الله على المسلمين من أنباء بني إسرائيل في هذا ما يحذرهم من الوقوع في مثله، حتى لا تسلب منهم الخلافة في الأرض والأمانة التي ناطها بهم الله، فلما وقعوا في مثل ما وقع فيه بنو إسرائيل، وطرحوا منهج الله وشريعته، وحكموا أهواءهم وشهواتهم، وقتلوا فريقا من الهداة وكذبوا فريقا، ضربهم الله بما ضرب به بني إسرائيل من قبل، من الفرقة والضعف، والذلة والهوان، والشقاء والتعاسة، إلاَّ أن يستجيبوا لله ورسله، وإلا أن يخضعوا أهواءهم لشريعته وكتابه، وإلا أن يفوا بعهد الله معهم ومع أسلافهم، وإلا أن يأخذوه بقوة، ويذكروا ما فيه لعلهم يهتدون .

وقد كانت حجة بني إسرائيل في إعراضهم عن الإسلام، وإبائهم الدخول فيه، أن عندهم الكفاية من تعاليم أنبيائهم، وأنهم ماضون على شريعتهم ووصاياهم، فهنا يفضحهم القرآن ويكشف عن حقيقة موقفهم من أنبيائهم ورسلهم فقد كان استقبالهم لذلك الحشد من الرسل التكذيب أو القتل، كما قال تعالى:﴿أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴾، ومحاولة إخضاع الهداة والشرائع للهوى الطارئ والنزوة النفوس المتقلبة "[٦٠].

([٦٠]) في ظلال القرآن، لسيد قطب ١/ ٦١، بتصرف واختصار.

وقد أكَّد الله تعالى على هذا المعنى في سورة المائدة في قوله تعالى: ﴿ لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَأَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ رُسُلًا كُلَّمَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ ﴾[المائدة: ٧٠]، قال ابن عاشور في تفسيره لهذه الآية:" وقوله: وتقديم كلما في قوله تعالى ﴿ كُلَّمَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ ﴾ على العامل استعمال شائع لا يكاد يتخلف؛ لأنهم يريدون بتقديمه الاهتمام به، ليظهر أنه هو محل الغرض المسوقة له جملته، فإن استمرار صنيعهم ذلك مع جميع الرسل في جميع الأوقات دليل على أن التكذيب والقتل صارا سجيتين لهم لا تتخلفان، إذ لم ينظروا إلى حال رسول دون آخر ولا إلى زمان دون آخر، وذلك أظهر في فظاعة حالهم، وهي المقصود هنا.

ومعنى قوله تعالى:﴿ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُهُمْ ﴾ أي بما لا تحبه، إن بعثة الرسل القصد منها كبح الأنفس عن كثير من هواها الموقع لها في الفساد عاجلا والخسران آجلا، ولولا ذلك لترك الناس وما يهوون، فالشرائع مشتملة لا محالة على كثير من منع النفوس من هواها، ولما وصفت بنو إسرائيل بأنهم يكذبون الرسل ويقتلونهم إذا جاؤوهم بما يخالف هواهم علمنا أنه لم يخل رسول جاءهم من أحد الأمرين أو كليهما: وهما التكذيب والقتل، وذلك مستفاد

من ﴿ كُلَّمَا جَآءَهُمْ رَسُولُۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُهُمُ فَرِيقًا كَذَّبُوا۟ وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ ﴾"(٦١).

وقال الشيخ رشيد رضاء:" والتعبير عن القتل بالمضارع ﴿ يَقْتُلُونَ ﴾مع كونه كالتكذيب وقع في الماضي نكتته تصوير جرم القتل الشنيع واستحضار هيئته المنكرة، كأنه واقع في الحال للمبالغة في النعي عليهم والتوبيخ لهم، فقد أفادت الآية أنهم بلغوا من الفساد واتباع أهوائهم أخشن مركب وأشده تقحما بهم في الضلال حتى لم يعد يؤثر في قلوبهم وعظ الرسل وهديهم، بل صار يغريهم بزيادة الكفر والتكذيب وقتل أولئك الهداة الأخيار" (٦٢).

ومن الآيات القرآنية الدالة على هذا المعنى قوله تعالى:﴿ أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴿٢٠﴾ أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ ﴿٢٢﴾ إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٢٣﴾ ﴾ [النجم: ١٩ – ٢٣]'

الصفة الجامعة بين أهل الكفر ـ على اختلاف مللهم ونحلهم ـ أنهم يتبعون أهواءهم، ففي الآيات السابقة حدثنا القرآن الكريم عن اليهود، وبين لنا أنهم لا يتبعون أنبياءهم ورسلهم إلا إذا جاؤهم بما تهواه أنفسهم، وما عدى ذلك فإنهم

---

(٦١) التحرير والتنوير، لابن عاشور ٦/ ٢٧٢، باختصار.

(٦٢) تفسير المنار، لمحمد رشيد رضاء ٣٩٨/٦.

يكذبون فريقا منهم، ويقتلون آخرين، وفي هذه الآية يتحدث القرآن الكريم عن نوع آخر من الكفار، إنهم المشركون من العرب، فقد كذبوا نبين محمد صلى الله عليه وسلم؛ لأنه جاءهم بما لا تهواه أنفسهم وبما لا تدركه عقولهم، وفي المقابل اخترعوا لهم آلهة، وسموا لهم معبودات بما تتوافق مع رغباته أنفسهم وأهوائهم، قال سيد قطب:" هذه الأسماء، اللات، العزى، مناة، وغيرها، وتسميتها آلهة وتسميتها ملائكة، وتسمية الملائكة إناثا، وتسمية الإناث بنات الله، كلها أسماء لا مدلول لها، ولا حقيقة وراءها، ولم يجعل الله لكم حجة فيها، وكل ما لم يقرره الله فلا قوة فيه ولا سلطان له؛ لأنه لا حقيقة له، وللحقيقة ثقل، وللحقيقة قوة، وللحقيقة سلطان فأما الأباطيل فهي خفيفة لا وزن لها، ضعيفة لا قوة لها، مهينة لا سلطان فيها، وفي منتصف الآية يتركهم وأوهامهم وأساطيرهم، ويترك خطابهم، ويلتفت عنهم كأنهم لا وجود لهم، ويتحدث عنهم بصيغة الغائب:﴿ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهۡوَى ٱلۡأَنفُسُۖ ﴾، فلا حجة ولا علم ولا يقين، إنما هو الظن يقيمون عليه العقيدة، والهوى يستمدون منه الدليل، والعقيدة لا مجال فيها للظن والهوى؛ ولا بد فيها من اليقين القاطع والتجرد من الهوى والغرض، وهم لم يتبعوا الظن والهوى ولهم عذر أو علة:﴿ وَلَقَدۡ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلۡهُدَىٰٓ ﴾، فانقطع العذر وبطل التعلل!

ومتى انتهى الأمر إلى شهوة النفس وهواها فلن يستقيم أمر، ولن يجدي هدى؛ لأن العلة هنا ليست خفاء الحق، ولا ضعف الدليل، إنما هي الهوى

الجامح الذي يريد، ثم يبحث بعد ذلك عن مبرر لما يريد! وهي شر حالة تصاب بها النفس فلا ينفعها الهدى، ولا يقنعها الدليل!"[٦٣] .

هكذا يحدثنا القرآن الكريم عن خطورة اتباع هوى النفس المحرم؛ ذلك أنه مرض أمراض النفس الإنسانية يقود صاحبه إلى مهاوي الهلاك والردى، والقرآن الكريم، في الغالب، يتحدث عن الهوى في معرض الذم والتحذير منه كما قال تعالى: ﴿ أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ [الجاثية: ٢٣].

فعلى المرء المسلم أن يجعل هواه منقادا لشرع الله تعالى؛ إن أرد النجاة في الدنيا والسعادة في الأخرى، وصدق الله القائل: ﴿ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [القصص: ٥٠].

---

(٦٣) في ظلال القرآن، لسيد قطب ٧/ ٥٧.

المرض الخامس: تسويل النفس

الأفعال القبيحة التي يقوم بها الإنسان معظمها تتم بواسطة تسويل النفس وتزيين هذه الأفعال للإنسان، وقد تحدث القرآن الكريم عن هذه القضية في آيات كثيرة، منها ما ذكره الله تعالى في قصة السامري الذي سولت له نفسه صاعة عجل ذهبي لبني إسرائيل، في فترة غياب سيدنا موسى عليه السلام عن بني إسرائيل ودعوته لهم إلى عبادة هذا العجل، ولما عاد سيدنا موسى عليه السلام إليه سأل السامري عن سبب صناعته للعجل، فأخبره أن السبب الذي دفعة لصناعة العجل هي نفسه التي سولت له هذا الفعل، وقد ذكر الله تعالى في كتابه الكريم أن موسى قال للسامري:﴿ مَا خَطْبُكَ يَٰسَٰمِرِيُّ ﴿٩٥﴾ قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُواْ بِهِۦ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِى نَفْسِى ﴿٩٦﴾ ﴾ [طه: ٩٥ – ٩٦]، قال الإمام ابن كثير في تفسيره لهذه الآية:" يقول موسى عليه السلام للسامري: ما حملك على ما صنعت؟ وما الذي عرض لك حتى فعلت ما فعلت؟﴿ قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُواْ بِهِۦ ﴾ أي: رأيت جبريل حين جاء لهلاك فرعون، ﴿ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ ﴾ أي: من تحت حافر فرس جبريل، والقبضة ملء الكف، بأطراف الأصابع، قال مجاهد: نبذ السامري ما كان في يده على حُلِيِّ بني

إسرائيل، فانسبك عجلاً جسداً له خوار حفيف الريح فيه، فهو خواره، وقال عكرمة: كان بنو إسرائيل قد استعاروا حلي آل فرعون، ولما ذهب موسى للميقات، فقال لهم السامري: إنما أصابكم من أجل هذا الحلي، فاجمعوه، فجمعوه فأوقدوا عليه، فذاب، فرآه السامري فألقي في روع لسامري أنك لو قذفت هذه القبضة في هذه فقلت: كن عجلا كان، فقذف القبضة وقال: كن عجلا، فكان عجلا له خوار، فقال لبني إسرائيل: ﴿ فَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ ﴾[طه: ٨٨] ولهذا قال: ﴿ فَنَسِىَ ﴾ أي: ألقيتها مع من ألقى، ﴿ وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِى نَفْسِى ﴾ أي: حسنته وأعجبها إذ ذاك"[٦٤].

ومن الآيات القرآنية التي جاء فيها حديث عن تسويل النفس قوله تعالى عن إخوة يوسف: ﴿ وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٍ كَذِبٍ ۚ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴾ [يوسف: ١٨] هذه الآية جاءت في سورة يوسف، وهى تبين لنا جزء من المؤامرة التي حاكها إخوة يوسف ضد أخيهم، وكان الدافع لهذه المؤامرة تسويل أنفسهم لهم هذا الفعل، قال الإمام الرازي في تفسيره لهذه الآية:" قال الشعبي: قصة يوسف كلها في قميصه؛ وذلك لأنهم لما ألقوه في الجب نزعوا قميصه ولطخوه بالدم وعرضوه على أبيهم، واحتجوا على صدقهم بالقميص الملطخ بالدم، قال يعقوب عليه

---

(٦٤) تفسير ابن كثير ٥/ ٣١٣، باختصار وتصرف.

السلام: ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا﴾، قال ابن عباس: معناه: بل زينت لكم أنفسكم أمرا، والتسويل تقدير معنى في النفس مع الطمع في إتمامه فقوله: ﴿بَلْ﴾ رد لقولهم:﴿أَكَلَهُ الذِّئْبُ﴾[يوسف: ١٤] كأنه قال: ليس كما تقولون: ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا﴾ أي زينت لكم أنفسكم أمرا غير ما تصفون"(٦٥).

وفي سورة يوسف عليه السلام تكرر نفس الحديث من سيدنا يعقوب عليه السلام تجاه أولاد، وهذه المرة كان الدافع لكلامه هو فقدانه ولدا آخر من أولاد، حيث أرسله مع إخوته، بعد إلحاحهم عليه في طلبهم هذا، ولما عادوا إلى أبيهم بدون أخيهم وأخبروه أنه قد سرق مباشرة قال في وجههم﴿ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ عَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴾[يوسف: ٨٣،.] قال الإمام ابن الجوزي في تفسيره لهذه الآية:" قوله تعالى:﴿ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ ﴾ في الكلام اختصار، والمعنى: فرجعوا إلى أبيهم فقالوا له ذلك، واختلفوا لأي علة قال لهم هذا القول، على ثلاثة أقوال: **أحدها**: سولت لكم أنه سرق، وما سرق، **والثاني**: أنه ظن أن الذي تخلف منهم، إنما تخلف حيلة ومكرا ليصدقهم، قاله وهب بن منبه، **والثالث**: أن المعنى: سولت لكم أنفسكم أن خروجكم بأخيكم يجلب نفعا، قاله

---

(٦٥) تفسير الرازي٩/ ٩.

ابن الأنباري، قوله تعالى:﴿ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأۡتِيَنِي بِهِمۡ جَمِيعًاۚ ﴾ يعني: يوسف وبنيامين وأخاهما المقيم بمصر، ﴿ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَلِيمُ ﴾ أي: بشدة حزني، وقيل: بمكانهم، ﴿ ٱلۡحَكِيمُ ﴾ فيما حَكَم علي"[٦٦].

وقال ابن عاشور في تفسيره لهذه الآية:" جعلت جملة: ﴿ قَالَ بَلۡ سَوَّلَتۡ لَكُمۡ أَنفُسُكُمۡ أَمۡرًاۖ ﴾ في صورة الجواب عن الكلام الذي لقنه أخوهم[٦٧] على طريقة الإيجاز، والتقدير: فرجعوا إلى أبيهم فقالوا ذلك الكلام الذي لقنه إياهم أخوهم، فقال لهم أبوهم:﴿ بَلۡ سَوَّلَتۡ لَكُمۡ أَنفُسُكُمۡ أَمۡرًاۖ فَصَبۡرٞ جَمِيلٌۖ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأۡتِيَنِي بِهِمۡ جَمِيعًاۚ ﴾، وقوله هنا كقوله لهم حين زعموا أن يوسف عليه السلام أكله الذئب، فهو تهمة لهم بالتغرير بأخيهم، وجملة﴿ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ ﴾ تعليل لرجائه من الله بأن الله عليم فلا تخفى عليه مواقعهم المتفرقة، حكيم فهو قادر على إيجاد أسباب جمعهم بعد التفرق" [٦٨].

والملاحظ أن معظم الجرائم التي يفعلها الإنسان إنما تبدأ بأن تسول النفس لصاحبها هذا الفعل، فإذا لم يدفع الإنسان عن نفسه هذا الخاطر من التسويل

([٦٦]) زاد المسير، لابن الجوزي ٣/ ٤٥٨، باختصار، وتصرف.

([٦٧]) المقصود بذلك قوله لهم كما حكى الله عنه أنه قال لهم: ﴿ ٱرۡجِعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَبِيكُمۡ فَقُولُواْ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّ ٱبۡنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدۡنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمۡنَا وَمَا كُنَّا لِلۡغَيۡبِ حَٰفِظِينَ ٨١ وَسۡـَٔلِ ٱلۡقَرۡيَةَ ٱلَّتِي كُنَّا فِيهَا وَٱلۡعِيرَ ٱلَّتِيٓ أَقۡبَلۡنَا فِيهَاۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ٨٢ ﴾ يوسف: ٨١ – ٨٢

([٦٨]) التحرير والتنوير، لابن عاشور ١٣/٤١، باختصار.

النفسي، فإن النفس تسول له أكثر وما تزال تسول له حتى يطاوعها، ويستجيب لها في تنفيذ ما سولته له، وحينها يصبح من الخاسرين إن لم تتداركه رحمة الله تعالى ومغفرته، وهذا ما حدثنا عنه القرآن الكريم في قصة ابني آدم، فبعد أن حاوره أخوه وخوفه بالله تعالى وحذره عاقبة فعله، بعد هذا كله سولت له نفسه الشريرة، فوقع في جريمة قتل أخيه، قال تعالى:" ﴿ فَطَوَّعَتۡ لَهُۥ نَفۡسُهُۥ قَتۡلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصۡبَحَ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴾ [المائدة: : ٣٠] قال سيد قطب في ظلاله:" خسر نفسه فأوردها موارد الهلاك، وخسر أخاه ففقد الناصر والرفيق، وخسر دنياه فما تهنأ للقاتل حياة، وخسر آخرته فباء بإثمه الأول وإثمه الأخير، ومثلت له سوأة الجريمة في صورتها الحسية، صورة الجثة التي فارقتها الحياة وباتت لحما يسري فيه العفن، فهو سوأة لا تطيقها النفوس، وشاءت حكمة الله أن تقفه أمام عجزه وهو الباطش القاتل الفاتك عن أن يواري سوأة أخيه، عجزه عن أن يكون كالغراب في أمة الطير "[٦٩] .فلينتبه الإنسان لخواطر نفسه الأمارة بالسوء، التي تسول له كل معصية وتدعوه لفعلها، فإن أستجاب لها وأطاعها في ذلك أوقعته في كل كبيرة من كبائر الذوب والمعاصي، ولا نجاة له بعد ذلك إلاَّ أن يداركه الله برحمة منه ورضوانه.

([٦٩]) في ظلال القرآن، لسيد قطب ٢/ ٣٥٠، باختصار، وتصرف يسير.

المرض السادس: خيانة النفس

من الصور الدقيقة للأمانات التي لا ينتبه لها كثير من الناس، أمانات العبادات والمعاملات، فكل ما افترضه الله علينا من العبادات والمعاملات ـ وما يلحق بهما ـ كل ذلك عبارة عن أمانات وطاعات يجب القيام بها، والمسلم الحق لا تخون نفسه في شيئ من ذلك، وإذا زلت بالعبد القدم سارع في التوبة الإنابة إلى الله تعالى، وقد تحدث القرآن الكريم عن هذا المرض من أمراض النفس الإنسانية في قوله تعالى: ﴿ أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ ۚ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ ۗ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْ ۖ فَٱلْـَٰٔنَ بَٰشِرُوهُنَّ وَٱبْتَغُوا۟ مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۚ وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِ ۖ ثُمَّ أَتِمُّوا۟ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيْلِ ۚ وَلَا تُبَٰشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَٰكِفُونَ فِى ٱلْمَسَٰجِدِ ۗ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٨٧﴾ ﴾ [البقرة: ١٨٧].

سبب نزول هذه الآيات

عن البراء رضي الله عنه لما نزل صوم رمضان كانوا لا يقربون النساء رمضان كله، وكان رجال يخونون أنفسهم فأنزل الله:﴿ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمۡ كُنتُمۡ تَخۡتَانُونَ أَنفُسَكُمۡ فَتَابَ عَلَيۡكُمۡ وَعَفَا عَنكُمۡۖ ﴾ [البقرة: ١٨٧] (٧٠).

وعن عبد الله بن كعب قال: كان الناس في رمضان إذا صام الرجل فأمسى، فنام حرم عليه الطعام والشراب والنساء حتى يفطر من الغد، فرجع عمر بن الخطاب من عند النبي صلى الله عليه وسلم ذات ليلة وقد سهر عنده فوجد امرأته قد نامت فأرادها فقالت: إني قد نمت قال: ما نمت ثم وقع بها، وصنع كعب بن مالك مثل ذلك، فغدا عمر إلى النبي صلى الله عليه وسلم فأخبره فأنزل الله تعالى:﴿ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمۡ كُنتُمۡ تَخۡتَانُونَ أَنفُسَكُمۡ فَتَابَ عَلَيۡكُمۡ وَعَفَا عَنكُمۡۖ ﴾ [البقرة: ١٨٧].(٧١)

قال الإمام الطبري، في تفسيره لهذه الآية: فإن قال لنا قائل: وما هذه الخيانة التي كان القوم يختانونها أنفسهم، التي تاب الله منها عليهم فعفا عنهم؟ قيل: كانت خيانتهم أنفسهم التي ذكرها الله في شيئين، **أحدهما**: جماع النساء، **والآخر**: المطعم والمشرب في الوقت الذي كان حراما ذلك عليهم، فعن عبد الرحمن بن أبي ليلى قال: كانوا يصومون رمضان، فإذا لم يأكل

---

(٧٠) صحيح البخاري، برقم(٤١٤٨).

(٧١) صحيح البخاري برقم(١٧٨٢).

الرجل عند فطره حتى ينام، لم يأكل إلى مثلها، وإن نام أو نامت امرأته لم يكن له أن يأتيها إلى مثلها، فجاء شيخ من الأنصار يقال له قيس بن صرمة الأنصاري، فقال لأهله: أطعموني، فقالت: حتى أجعل لك شيئا سخنا! قال: فغلبته عينه فنام[٧٢]، ثم جاء عمر إلى امرأته فقالت له: إني قد نمت! فلم يعذرها، وظن أنها تعتل، فواقعها، فبات هذا وهذا يتقلبان ليلتهما ظهرا وبطنا، فأنزل الله في ذلك: ﴿ أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ ۚ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ ۗ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْ ۖ فَٱلْـَٰٔنَ بَٰشِرُوهُنَّ وَٱبْتَغُوا۟ مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۚ وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِ ۖ ثُمَّ أَتِمُّوا۟ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيْلِ ۚ وَلَا تُبَٰشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ

---

(٧٢)عن البراء رضي الله عنه قال كان أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم إذا كان الرجل صائما فحضر الإفطار فنام قبل أن يفطر لم يأكل ليلته ولا يومه حتى يمسي، وإن قيس بن صرمة الأنصاري كان صائما فلما حضر الإفطار أتى امرأته فقال لها أعندك طعام قالت لا ولكن أنطلق فأطلب لك، وكان يومه يعمل فغلبته عيناه فجاءته امرأته فلما رأته قالت خيبة لك، فلما انتصف النهار غشي عليه فذكر ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم فنزلت هذه الآية ﴿ أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ ۚ ... ﴾ [البقرة: ١٨٧]، مسند أحمد برقم(١٥٨٣٣)، وقال عنه شعيب الأرناؤوط: إسناده حسن، وينظر: لباب النقول، للسيوطي صـ ٢٤، والعجاب في بيان الأسباب، لابن حجر صـ ١١٣.

عَٰكِفُونَ فِي ٱلْمَسَٰجِدِ ۗ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٨٧﴾ ﴾، فعفا الله عن ذلك، وكانت سنة"[٧٣].

فخيانة النفس في هذه الآية الأكل والشرب في ليالي رمضان، وقد كان هذا الأمر محرما في أول الإسلام ثم نسخ الله تعالى هذا الحكم رحمة بهذه الأمة.

ومن الآيات القرآنية التي جاء فيها حديث عن خيانة النفس قوله تعالى:

﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ ۚ وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا ﴿١٠٥﴾ وَٱسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٠٦﴾ وَلَا تُجَٰدِلْ عَنِ ٱلَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا ﴿١٠٧﴾ يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ ٱلْقَوْلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا ﴿١٠٨﴾ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ جَٰدَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فَمَن يُجَٰدِلُ ٱللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَم مَّن يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴿١٠٩﴾ وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١١٠﴾ وَمَن يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُۥ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١١١﴾ وَمَن يَكْسِبْ خَطِيٓـَٔةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِۦ بَرِيٓـًٔا فَقَدِ ٱحْتَمَلَ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿١١٢﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُۥ لَهَمَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ ۖ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَىْءٍ ۚ وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ

---

(٧٣) تفسير الطبري ٣/ ٤٩٣، باختصار.

ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمۡ تَكُن تَعۡلَمُۚ وَكَانَ فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكَ عَظِيمٗا ﴿١١٣﴾(٧٤).

الآية السابقة تتحدث عن الذين يختانون أنفسهم في جانب العبادات، وهذه الآيات تتحدث عن الذين يختانون أنفسهم في جانب المعاملات، ولكي نفهم هذه الآيات لابد لنا من الوقوف عند سبب نزول هذه الآيات ؛ حتى تتضح الصورة أكثر.

سبب نزول هذه الآيات

عن قتادة بن النعمان رضى الله تعالى عنه قال كان بنو أبيرق رهط من بني ظفر وكانوا ثلاثة بشير وبشر ومبشر، وكان بشير يكنى أبا طعمة وكان شاعرا وكان منافقا وكان يقول الشعر يهجو به أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم يقول قاله فلان فإذا بلغهم ذلك قالوا كذب عدو الله ما قاله إلا هو، وكانوا أهل فقر وحاجة في الجاهلية والإسلام، وكان عمي رفاعة بن زيد رجلا موسرا أدركه الإسلام فوالله إن كنت لأرى أن في إسلامه شيئا، وكان إذا كان له يسار فقدمت عليه هذه الضافطة[٧٥] من السدم تحمل الدرمك[٧٦]

---

(٧٤) النساء: ١٠٥ – ١١٣.

(٧٥) الضافطة: الإبل تحمل المتاع، معجم مقاييس اللغة، لابن فارس ٣/ ٢٨٨.

(٧٦) الدرمك: لدَقيقُ الناعم، القاموس المحيط ، للفيروز أبادي٣/ ٢٥، باختصار.

ابتاع لنفسه ما يحل به فأما العيال فكان يقيتهم الشعير فقدمت ضافطة تحمل درمكا فابتاع رفاعة حملين من شعير فجعلهما في علية له وكان في عليته درعان له وما يصلحهما من آلتهما فطرقه بشير من الليل فخرق العلية من ظهرها فأخذ الطعام ثم أخذ السلاح، فلما أصبح عمي بعث إلي فأتيته فقال: أغير علينا هذه الليلة فذهب بطعامنا وسلاحنا فقال بشير وإخوته: والله ما صاحب متاعكم إلا لبيد بن سهل لرجل منا كان ذا حسب وصلاح فلما بلغه قال: أصلت والله بالسيف ثم قال أي بني الأبيرق وأنا أسرق فوالله ليخالطنكم هذا السيف أو لتبينن من صاحب هذه السرقة؟ فقالوا: انصرف عنا فوالله إنك لبرئ من هذه السرقة فقال: كلا وقد زعمتم ثم سألنا في الدار وتجسسنا حتى قيل لنا: والله لقد استوقد بنو أبيرق الليلة وما نراه إلا على طعامكم فما زلنا حتى كدنا نستيقن أنهم أصحابه فجئت رسول الله صلى الله عليه وسلم فكلمته فيهم فقلت يا رسول الله: إن أهل بيت منا أهل جفاء وسفه غدوا على عمي فخرقوا علية له من ظهرها فغدوا على طعام وسلاح فأما الطعام فلا حاجة لنا فيه وأما السلاح فليرده علينا، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم:" **سأنظر في ذلك**" وكان لهم بن عم يقال له أسير بن عروة، فجمع رجال قومه ثم أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال إن رفاعة بن زيد وابن أخيه قتادة بن النعمان قد عمدا إلى أهل بيت منا أهل حسب وشرف وصلاح يأبنونهم بالقبيح ويأبنونهم بالسرقة بغير بينة ولا شهادة، فوضع عند

رسول الله صلى الله عليه وسلم بلسانه ما شاء ثم انصرف وجئت رسول الله صلى الله عليه وسلم وكلمته فجبهني جبها شديدا وقال:" **بئس ما صنعت وبئس ما مشيت فيه، عمدت إلى أهل بيت منكم أهل حسب وصلاح ترميهم بالسرقة وتأبنهم فيها بغير بينة ولا تثبت**" فسمعت من رسول الله صلى الله عليه وسلم ما أكره فانصرفت عنه ولوددت أني خرجت من مالي ولم أكلمه فلما أن رجعت إلى الدار أرسل إلي عمي يا بن أخي ما صنعت فقلت: والله لوددت أني خرجت من مالي ولم أكلم رسول الله صلى الله عليه وسلم فيه وأيم الله لا أعود إليه أبدا فقال الله المستعان فنزل القرآن ﴿ إِنَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ لِتَحۡكُمَ بَيۡنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُۚ وَلَا تَكُن لِّلۡخَآئِنِينَ خَصِيمٗا ﴾ أي طعمة بن أبيرق فقرأ حتى بلغ ﴿ ثُمَّ يَرۡمِ بِهِۦ بَرِيٓـٔٗا ﴾ أي لبيد بن سهل ﴿ وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكَ وَرَحۡمَتُهُۥ لَهَمَّت طَّآئِفَةٞ مِّنۡهُمۡ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمۡۖ ﴾ يعني أسير بن عروة وأصحابه ثم قال ﴿ لَّا خَيۡرَ فِي كَثِيرٖ مِّن نَّجۡوَىٰهُمۡ ﴾[النساء: ١١٤] إلى قوله:﴿ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ ﴾ [النساء: ١١٦] أي كان ذنبه دون الشرك فلما نزل القرآن هرب فلحق بمكة وبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم إلي الدرعين وأداتهما فردهما على رفاعة قال قتادة: فلما جئته بهما وما معهما قال يا بن أخي هما في سبيل الله عز وجل فرجوت أن عمي حسن إسلامه وكان ظني به غير ذلك وخرج

بن أبيرق حتى نزل على سلامة بنت سعد بن سهل أخت بني عمرو بن عوف وكانت عند طلحة بن أبي طلحة بمكة فوقع برسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه يشتمهم فأخرجته من منزلها، فلما أخرجته لحق بالطائف فدخل بيتا ليس فيه أحد فوقع عليه فقتله فجعلت قريش تقول: والله لا يفارق محمدا أحد من أصحابه فيه خير "[٧٧].

قال سيد قطب في ظلاله تعليقا على هذه الآية:" هذه الآيات تحكي قصة لا تعرف لها الأرض نظيرا، ولا تعرف لها البشرية شبيها، وتشهد وحدها بأن هذا القرآن وهذا الدين لا بد أن يكون من عند الله؛ لأن البشر مهما ارتفع تصورهم، ومهما صفت أرواحهم، ومهما استقامت طبائعهم لا يمكن أن يرتفعوا بأنفسهم إلى هذا المستوى الذي تشير إليه هذه الآيات؛ إلا بوحي من الله، هذا المستوى الذي يرسم خطا على الأفق لم تصعد إليه البشرية إلا في ظل هذا المنهج ولا تملك الصعود إليه أبدا إلا في ظل هذا المنهج كذلك!

إنه في الوقت الذي كان اليهود في المدينة ينشرون الأكاذيب؛ ويؤلبون المشركين؛ ويشجعون المنافقين، ويرسمون لهم الطريق؛ ويطلقون الإشاعات؛ ويضللون العقول؛ ويطعنون في القيادة النبوية، ويشككون في الوحي والرسالة؛ ويحاولون تفسيخ المجتمع المسلم من الداخل، في الوقت الذي يؤلبون عليه

([٧٧]) مستدرك الحاكم برقم(٨١٦٤)، وقال عنه أبو عبد الله الحاكم: هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه، وينظر: لباب النقول في أسباب النزول، للسيوطي صـ ٧١

خصومه ليهاجموه من الخارج، والإسلام ناشئ في المدينة، ورواسب الجاهلية ما يزال لها آثارها في النفوس؛ ووشائج القربى والمصلحة بين بعض المسلمين وبعض المشركين والمنافقين واليهود أنفسهم، تمثل خطرا حقيقيا على تماسك الصف المسلم وتناسقه . .

في هذا الوقت الحرج، الخطر، الشديد الخطورة، كانت هذه الآيات كلها تتنزل، على رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلى الجماعة المسلمة، لتنصف رجلا يهوديا، اتهم ظلما بسرقة؛ ولتدين الذين تآمروا على اتهامه، وهم بيت من الأنصار في المدينة، والأنصار يومئذ هم عدة الرسول صلى الله عليه وسلم وجنده، في مقاومة هذا الكيد الناصب من حوله ، ومن حول الرسالة والدين والعقيدة الجديدة.. !

أي مستوى هذا من النظافة والعدالة والتسامي! ثم أي كلام يمكن أن يرتفع ليصف هذا المستوى؟ وكل كلام، وكل تعليق، وكل تعقيب، يتهاوى دون هذه القمة السامقة؛ التي لا يبلغها البشر وحدهم، بل لا يعرفها البشر وحدهم ، إلا أن يقادوا بمنهج الله ، إلى هذا الأفق العلوي الكريم الوضيء؟!

إن المسألة لم تكن مجرد تبرئة بريء، تآمرت عليه عصبة لتوقعه في الاتهام – وإن كانت تبرئة بريء أمرا هائلا ثقيل الوزن في ميزان الله – إنما كانت أكبر من ذلك . كانت هي إقامة الميزان الذي لا يميل مع الهوى، ولا مع العصبية، ولا يتأرجح مع المودة والشنآن أيا كانت الملابسات والأحوال .

وكانت المسألة هي تطهير هذا المجتمع الجديد؛ وعلاج عناصر الضعف البشري فيه مع علاج رواسب الجاهلية والعصبية – في كل صورها حتى في صورة العقيدة، إذا تعلق الأمر بإقامة العدل بين الناس وإقامة هذا المجتمع الجديد، الفريد في تاريخ البشرية، على القاعدة الطيبة النظيفة الصلبة المتينة التي لا تدنسها شوائب الهوى والمصلحة والعصبية، والتي لا تترجرج مع الأهواء والميول والشهوات!"[٧٨].

فإذا علم المسلم خطورة خيانة الأنفس في العبادات والمعاملات، التزم بأدائها كما فرضها الله وفعلها رسوله صلى الله عليه وسلم، وبذلك ينال رضوان الله تعالى ومحبته.

([٧٨]) في ظلال القرآن، لسيد قطب ٢/ ٢٣١، باختصار.

المرض السابع: أمر الناس بالبِرْ ونسيان النفس

من آفات النفس الخطيرة وأمرضها المستطيرة، مخالفة القول للعمل، ونسيان النفس من الأوامر والنواهي التي يأمر بها الإنسان الآخرين، وهذ التناقض بين القول والعمل قد شن عليه القرآن حربا شعواء وندد بأصحاب هذ السلوك، وجعل ذلك من أسباب نيل صاحبة مقت الله تعالى وغضبه؛ ذلك أن الإنسان إذا أمر غيره بالبر ونسى نفسه دلَّ ذلك على انحراف سلوكه، وقلة عقله، وقد حدثنا القرآن الكريم أن اليهود هم أكثر أمم الأرض ممارسة لهذا السلوك المشين والتصرف المقيت، وأن كل من وقع في هذا التناقض والمخالفة بين القول والفعل، فقد تشبه باليهود في هذا الخلق الذميم، ومن الآيات القرآنية الدالة على ذل قوله تعالى: ﴿ أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ [البقرة: ٤٤]، قال الإمام الرازي في تفسيره لهذه الآية:" واختلفوا في المراد بالبر في هذا الموضع على وجوه، **أولاً:** أن جماعة من اليهود كانوا قبل مبعث الرسول صلى الله عليه وسلم يخبرون مشركي العرب أن رسولا سيظهر منكم ويدعو إلى الحق وكانوا يرغبونهم باتباعه فلما بعث الله محمدا حسدوه وكفروا به، فبكتهم الله تعالى بسبب أنهم كانوا يأمرون باتباعه قبل ظهوره، فلما ظهر تركوه وأعرضوا عن دينه، وهذا اختيار أبي مسلم، **ثانيا:** أن اليهود كانوا يأمرون غيرهم باتباع التوراة ثم إنهم

خالفوها؛ لأنهم وجدوا فيها ما يدل على صدق محمد صلى الله عليه وسلم، ثم إنهم ما آمنوا به **ثالثاً**: أن اليهود كانوا يأمرون الناس بطاعة الله وينهونهم عن معصية الله، وهم كانوا يتركون الطاعة ويقدمون على المعصية، قاله السدي **رابعاً**: أن اليهود كانوا يأمرون الناس بالصلاة والزكاة، وهم كانوا يتركونهما، قاله ابن جريج **خامساً**: أن اليهود إذا جاءهم أحد في الخفية لاستعلام أمر محمد صلى الله عليه وسلم قالوا: هو صادق فيما يقول وأمره حق فاتبعوه، وهم كانوا لا يتبعونه لطمعهم في الهدايا والصلات التي كانت تصل إليهم من أتباعهم، ، أما قوله: ﴿ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ ﴾ فالنسيان عبارة عن السهو الحادث بعد حصول العلم والناسي غير مكلف ومن لا يكون مكلفا لا يجوز أن يذمه الله تعالى على ما صدر منه"[٧٩]

ويضيف الشيخ الشعراوي بعداً آخر لمعنى هذه الآية حيث قال رحمه الله تعالى:" ولابد أن ننبه إلى أنه إذا كانت هذه الآيات قد نزلت في اليهود، فليس معناها أنها تنطبق عليهم وحدهم، بل هي تنطبق على أهل الكتاب جميعا، وغيرهم من المؤمنين، فالعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب إن الدين كلمة تقال، وسلوك يفعل، فإذا انفصلت الكلمة عن السلوك ضاعت الدعوة؛ لأن من يراك تفعل ما تنهاه عنه يعرف أنك مخادع وغشاش، وما لم ترتضه أنت كسلوك لنفسك، لا يمكن أن تبشر به غيرك، لذلك نقرأ في القرآن الكريم،

([٧٩]) تفسير الرازي ٢/ ٧١، بتصرف واختصار.

ولذلك كان رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يأمر أصحابه بأمر إلا كان أسبقهم إليه، فكان المسلمون يأخذون عنه القدوة قولا وعملا، وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه، حين يريد أن يقنن أمرا في الإسلام يأتي بأهله وأقاربه ويقول لهم: لقد بدا لي أن آمر بكذا وكذا، والذي نفسي بيده من خالف منكم لأجعلنه نكالا للمسلمين، وكان عمر بن الخطاب بهذا يقفل أبواب الفتنة؛ لأنه يعلم من أين تأتي.

وهكذا فإن عالم الدين لابد أن يكون قدوة، فلا ينهى عن منكر ويفعله، أو يأمر بمعروف وهو لا ينفذه، فالناس كلهم مفتحة أعينهم لما يصنع، والإسلام قبل أن ينتشر بالمنهج العِلْمِي، انتشر بالمنهج السلوكي، وأكبر عدد من المسلمين اعتنق هذا الدين من أسوة سلوكية قادته إليه، فقوله تعالى: ﴿ أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ ﴾ يذكر الله بأن اليهود يقولون ما لا يفعلون، ولو كانوا يؤمنون حقا بالتوراة لآمنوا برسول الله صلى الله عليه وسلم وبالإسلام؛ لأن ذلك أمر في التوراة، ولكنهم نسوا أنفسهم، فهم أول مخالف للتوراة؛ لأنهم لم يتبعوها وهم يتلون كتابهم الذي يأمرهم بالإيمان الجديد .

ومع أنهم متأكدون من صدق رسالة رسول الله صلى الله عليه وسلم، إلا أنهم لا يؤمنون، ولو كان عندهم ذرة من العقل لآمنوا بما يطلبه منهم كتابهم

الذي يتلونه، ولكنهم لا يفكرون بعقولهم، وإنما يريدون علوا في الأرض، فالآية لا تنطبق على اليهود وحدهم، بل على كل من يسلك هذا السلوك"[٨٠]

وقريباً من معنى هذه الآية قوله تعالى:﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ۝٢ كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ﴾ [الصف: ٢ – ٣]

وإذا كانت الآية السابقة تتحدث عن اليهود، فإن هذه الآية تتحدث عن صنف من المؤمنين خالفت أقوالهم أفعالهم، فعاتبهم الله بهذه الآية، كما بيَّن ذلك سبب النزول، فعن ابن عباس رضي الله عنهما أن ناسا من المسلمين كانوا يقولون قبل أن يفرض الجهاد: لوددنا أن الله تعالى دلنا على أحب الأعمال إليه، فلما نزل الجهاد، كرهه ناس من المؤمنين، فنزلت هذه الآية

وقال ابن زيد: إن المنافقين كانوا يقولون للنبي وأصحابه: لو قد خرجتم خرجنا معكم، ونصرناكم، فلما خرج النبي صلى الله عليه وسلم نكصوا عنه، فنزلت هذه الآية، "[٨١].

قال الشيخ الشنقيطي:"في هاتين الآيتين بيان شدة غضب الله ومقته على من يكون كذلك، وقد اتفقت كلمة علماء التفسير على أن سبب النزول أنه حول الجهاد في سبيل الله من رغبة في الإذن لهم في الجهاد ومعرفة أحب الأعمال إلى الله، ونحو ذلك، ففي هذا السياق بيان لعتابهم على نقض العهد،

([٨٠]) تفسير الشعراوي صـ ١٦٤، باختصار.

([٨١]) أسباب النزول، للواحدي صـ ٤٤٧، وينظر: زاد المسير، لابن الجوزي ٦/ ٢٥.

وهو معنى: ﴿ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴾، وقد استدل بالآية من عموم لفظها على الإنكار على كل من خالف قوله فعله، سواء في عهد أو وعد أو أمر أو نهي "[٨٢] .

ومن الآيات القرآنية الدالة على هذا المعنى قول نبي الله شعيب لقومه ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أُخَالِفَكُمۡ إِلَىٰ مَآ أَنۡهَىٰكُمۡ عَنۡهُۚ إِنۡ أُرِيدُ إِلَّا ٱلۡإِصۡلَٰحَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُۚ وَمَا تَوۡفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ ﴾ [هود: ٨٨]، فهذا نبي الله شعيب عليه السلام يقدم من نفسه قدوة عملية لقومه، فهو لا يدعوهم إلى فعل شيئ إلاَّ كان سباقا لتطبيق ذلك الأمر وتنفيذه على أرض الواقع، قال ابن عاشور في تفسيره لهذه الآية :" والذي يظهر لي في معنى الآية أن المراد من المخالفة المعاكسة والمنازعة؛ إما لأنه عرف من ملامح تكذيبهم أنهم توهموه ساعيا إلى التملك عليهم والتجبر، فمعنى قوله:﴿ وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أُخَالِفَكُمۡ إِلَىٰ مَآ أَنۡهَىٰكُمۡ عَنۡهُۚ ﴾ أنه ما يريد مجرد المخالفة كشأن المنتقدين المتقعرين ولكن يخالفهم لمقصد سام وهو إرادة إصلاحهم، وفي هذا ما يدل على أن المنتقدين قسمان، قسم ينتقد الشيء ويقف عند حد النقد دون ارتقاء إلى بيان

([٨٢]) أضواء البيان، للشنقيطي ٨/ ٢٤٠، باختصار.

ما يصلح المنقود، وقسم ينتقد ليبين وجه الخطأ ثم يعقبه ببيان ما يصلح خطأه "[٨٣].

ولخطورة مخالفة الأقوال للأفعال ـ وخاصة في مقام الدعوة إلى الله تعالى ـ فقد حذر النبي صلى الله عليه وسلم من هذا السلوك وبيَّن عاقبة صاحبة وعذابه في الآخرة، فعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:"**رأيت ليلة أسري بي رجالا تقرض شفاههم بمقاريض من النار، فقلت: من هؤلاء يا جبريل؟ فقال: الخطباء من أمتك الذين يأمرون الناس بالبر وينسون أنفسهم وهم يتلون الكتاب أفلا يعقلون؟!** "[٨٤]، وعن أسامة ابن زيد رضى الله عنه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول:" **يجاء بالرجل يوم القيامة فيلقى في النار فتندلق به أقتابه فيدور بها في النار كما يدور الحمار برحاه، فيطيف به أهل النار فيقولون: يا فلان مالك ما أصابك ألم تكن تأمرنا بالمعروف وتنهانا عن المنكر؟ فقال كنت آمركم بالمعروف ولا آتيه، وأنهاكم عن المنكر وآتيه**"[٨٥].

([٨٣]) التحرير والتنوير، لابن عاشور ٧/ ١٨٥، باختصار.

([٨٤]) مسند أحمد برقم(١٣٥٣٩)، وقال عنه شعيب الأرناؤوط: حديث صحيح، وهو في صحيح الترغيب والترهيب برقم(٢٣٢٧).

([٨٥]) مسند أحمد برقم(٢١٨٣٢)، وقال عنه شعيب الأرناؤوط: سناده صحيح على شرط الشيخين، وهو في صحيح الجامع، برقم(٨٠٢٢).

وبهذا يتبين لنا خطورة مخالفة الأقوال للأفعال، وأمر الناس بالبر ونسيان النفس، وأن عاقبة ذلك وخيمة على صاحبها في الدنيا والآخرة، فعلى المسلم أن يحرص على أن تتوافق أقواله مع أفعاله؛ حتى يكون قدوة صالحة لغيرة؛ وحتى يقبل الله أعماله ويرفع درجاته.

المبحث الثالث: تكليف الأنفس، والمسؤولية عنها

كلَّف الله تعالى النفس الإنسانية بمعرفة خالقها وطاعته وعبادته بما شرع، وأوجب على كل إنسان أن يكون مسؤولاً عن نفسه وبين له أن كل عمل يعمله بنفسه وباختياره سوف يجازى به يوم القيامة، وسوف ينتظم الحديث في هذا المبحث في مطلبين على النحو التالي:

المطلب الأول: تكليف الله للأنفس

من رحمة الله تعالى بعبادة المؤمنين أنه لم يكلفهم من العبادات والطاعات إلاَّ بما تطيقهم أنفسهم، وتتحمله طاقاتهم؛ وذالك من أجل أن يُسَهِّل عليهم عباده وطاعته، قال تعالى:﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَاۚ لَهَا مَا كَسَبَتۡ وَعَلَيۡهَا مَا ٱكۡتَسَبَتۡ ﴾[البقرة: ٢٨٦] ويمكننا فهم هذه الآية من خلال معرفة سبب نزولها، فعن أبي هريرة قال لما نزلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم: ﴿ لِّلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَإِن تُبۡدُواْ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ أَوۡ تُخۡفُوهُ يُحَاسِبۡكُم بِهِ ٱللَّهُۖ فَيَغۡفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ﴾[البقرة: ٢٨٤] اشتد ذلك على أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم بركوا على الركب فقالوا: أي رسول الله كلفنا من

الأعمال ما نطيق الصلاة والصيام والجهاد والصدقة، وقد أنزلت عليك هذه الآية ولا نطيقها، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:" **أتريدون أن تقولوا كما قال أهل الكتابين من قبلكم سمعنا وعصينا؟! بل قولوا: سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير**" قالوا: سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير. فلما اقترأها القوم ذلت بها ألسنتهم فأنزل الله في إثرها:﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦۚ وَقَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ غُفۡرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ ٢٨٥ ﴾ [البقرة: ٢٨٥]، فلما فعلوا ذلك نسخها الله تعالى فأنزل الله عز وجل﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَاۚ لَهَا مَا كَسَبَتۡ وَعَلَيۡهَا مَا ٱكۡتَسَبَتۡۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذۡنَآ إِن نَّسِينَآ أَوۡ أَخۡطَأۡنَاۚ ﴾ قال نعم ﴿رَبَّنَا وَلَا تَحۡمِلۡ عَلَيۡنَآ إِصۡرٗا كَمَا حَمَلۡتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِنَا ﴾ قال نعم ﴿ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلۡنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦۖ ﴾ قال نعم﴿ وَٱعۡفُ عَنَّا وَٱغۡفِرۡ لَنَا وَٱرۡحَمۡنَآۚ أَنتَ مَوۡلَىٰنَا فَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴾قال نعم" [٨٦].

قال الإمام الطبري في تفسيره لهذه الآية:" يعني بذلك جلَّ ثناؤه: لا يكلف الله نفسا إلا بما يسعها، فلا يُضَيِّق عليها ولا يجهدها، ولا يُحمِّل نفساً من الأمور إلا ما لا يضيق عليها، ولا يتعذر عليها وجوده إذا أرادت، قال ابن عباس قوله تعالى:﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَاۚ ﴾ قال: هم المؤمنون،

([٨٦]) صحيح مسلم برقم(١٧٩).، وينظر: أسباب النزول، للواحدي صـ ٩٧.

وسع الله عليهم أمر دينهم، فقال الله جل ثناؤه:﴿ وَمَا جَعَلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلدِّينِ مِنۡ حَرَجٖۚ ﴾[الحج: ٧٨]، وقال تعالى:﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلۡيُسۡرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلۡعُسۡرَ ﴾ [البقرة: ١٨٥] ، وقال:﴿ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُمۡ ﴾ [التغابن: ١٦].

أما قوله تعالى:﴿ لَهَا مَا كَسَبَتۡ وَعَلَيۡهَا مَا ٱكۡتَسَبَتۡ ﴾ فتأويلها: لا يكلف الله نفسا إلا ما يسعها فلا يجهدها، ولا يضيق عليها في أمر دينها، فيؤاخذها بهمة إن همت، ولا بوسوسة إن عرضت لها، ولا بخطرة إن خطرت بقلبها"[٨٧] بقلبها"[٨٧]

قال سيد قطب عند هذه الآية:"﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَاۚ لَهَا مَا كَسَبَتۡ وَعَلَيۡهَا مَا ٱكۡتَسَبَتۡ ﴾، وهكذا يتصور المسلم رحمة ربه وعدله في التكاليف التي يفرضها الله عليه في خلافته للأرض؛ وفي ابتلائه في أثناء الخلافة؛ وفي جزائه على عمله في نهاية المطاف، ويطمئن إلى رحمة الله وعدله في هذا كله؛ فلا يتبرم بتكاليفه، ولا يضيق بها صدرا، ولا يستثقلها كذلك، وهو يؤمن أن الله الذي فرضها عليه أعلم بحقيقة طاقته، ولو لم تكن في طاقته ما فرضها عليه، ومن شأن هذا التصور أن يستجيش عزيمة المؤمن للنهوض بتكاليفه، وهو يحس أنها داخلة في طوقه؛ ولو لم تكن داخلة في طوقه ما كتبها الله عليه؛ والشطر الثاني من هذا التصور في قوله تعالى:﴿ لَهَا مَا

([٨٧]) تفسير الطبري ٦/ ١٢٩، بتصرف واختصار.

﴿ كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ ﴾ فردية التبعة، فلا تنال نفس إلا ما كسبت؛ ولا تحمل نفس إلا ما اكتسبت، فالإنسان مسؤول عن نفسه هذه وعن حق الله فيها فإذا فرَّط في هذا الحق فما أحد من الخلق بدافع عنه يوم القيامة ولا شافع له؛ وما أحد منهم بحامل عنه شيئا من وزره، ولا ناصر له من الله في اليوم الآخر، فمن مقتضيات الإيمان أن ينهض كل فرد في إحقاق الحق في المجتمع وإزهاق الباطل، وفي تثبيت الخير والبر وإزاحة الشر والمنكر، وكل أولئك يحسب له أو عليه في صحيفته يوم يلقى الله فردا فيتلقى هنالك جزاءه"(٨٨).

وقريباً من معنى الآية السابقة قوله تعالى: ﴿ وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ ۖ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ ۚ وَعَلَى ٱلْمَوْلُودِ لَهُۥ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا ﴾ الآية السابقة تتحدث عن أنه لا تكليف للأنفس في العبادات الإَّ بقدر الوسع والطاقة، وهذه الآية تتحدث عن أنه لا تكليف للأنفس في المعاملات إلا بقدر الوسع والطاقة، وقد جاءت هذه الآية في سياق الحديث أحكام الرضاع، وفي هذا إشارة إلى عناية الإسلام بنفس الأطفال واهتمامه بحقوقهم؛ ولأن مسألة الرضاعة يترتب عليها آثار وتبعات ـ وخاصة إذا وقع طلاق بين الزوجين؛ لهذا راعى القرآن هذه المسألة، وأوجب على كل من

---

(٨٨) في ظلال القرآن، لسيد قطب ١/ ٣٢٦.

الزج والزوجة والدي الطفل الرضيع واجبات تجاه طفليهما، وهذه الواجبات من النوع الذي تتحمله نفسيهما، فعلى الوالدة اتمام الرضاعة، وعلى الوالد النفقة والكسوة خلال فترة الرضاعة، بحسب وسعه وطاقته.

قال الشيخ الشعراوي في تفسيره لهذه الآية:" انظر إلى عظمة الإسلام ها هو ذا الحق سبحانه يتكلم عن إرضاع الوالدات لأولادهن بعد عملية الطلاق، فالطلاق يورث الشقاق بين الرجل والمرأة، والحق سبحانه وتعالى ينظر لهذه المسألة نظرة الرحيم العليم بعباده، فيريد أن يحمي النفس التي نتجت من الزواج قبل أن يحدث الشقاق بين الأبوين فلا يجعلوا شقاقهم وخلافهم وطلاقهم مصدر لتعاسة الطفل صاحب النفس البريئة.

وهذا كلام عن المطلقات اللاتي تركن بيوت أزواجهن؛ لأن الله يقول بعد ذلك:﴿ وَعَلَى ٱلْمَوْلُودِ لَهُۥ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ ﴾، فعلى الأب رزقه وكسوته وعليه أيضا رزق وكسوة أمه التي ترضعه بالمعروف المتعارف عليه بما لا يسبب إجحافا وظلما للأب في كثرة الإنفاق، ويقول الحق:﴿ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا ﴾ هنا الحديث عن الأم والأب، فلا يصح أن ترهق المطلقة والد الرضيع بما هو فوق طاقته، وعليها أن تكتفي بالمعقول من النفقة."[٨٩].

([٨٩]) تفسير الشعراوي صـ ٦٢٨ باختصار.

ومثل هذه الآية قوله تعالى: ﴿ لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ﴾[الطلاق: ٧] في هذه الآية بسط لما أوجز من أحكام الرضاع في الآية السابقة، قال الإمام القرطبي في تفسيره لهذه الآية، قوله تعالى: ﴿ لِيُنفِقْ ﴾ أي لينفق الزوج على زوجته وعلى ولده الصغير على قدر وسعه إذا كان موسعا عليه، ومن كان فقيرا فعلى قدر ذلك، فتقدر النفقة بحسب الحالة من المنفق والحاجة من المنفق عليه بالاجتهاد على مجرى حياة العادة، فينظر المفتي إلى قدر حاجة المُنْفَقْ عليه ثم ينظر إلى حالة المُنْفِق، فإن احتملت الحالة أمضاها عليه، فإن اقتصرت حالته على حاجة المنفق عليه ردها إلى قدر احتماله، قوله تعالى: ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا ﴾ أي لا يكلف الفقير مثل ما يكلف الغني ﴿ سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ﴾ أي بعد الضيق غنى، وبعد الشدة سعة. (٩٠).

هكذا تتجلى رحمة الله بعبادة بأن لا يكلفهم من العبادات إلاَّ ما تطيقه أنفسهم، ولا يكلفهم من أحكام المعاملات فيما بينهم أو فيما يتعلق في المعاملات الأسرية إلاَّ بما يطيقونه وفي حدود إمكانياتهم المتاحة، فلله الحمد والمنة.

---

(٩٠) تفسير القرطبي ١٨/ ١٧٠، باختصار وتصرف يسير.

المطلب الثاني : مسؤولية الإنسان عن نفسه

الأعمال التي يقوم بها الإنسان في حياته الدنيا يقوم بها بمحض إرادته واختياره، وبالتالي فهو يتحمَّل نتائج هذه الأعمال، وما يترتب عليها من سعادة وتعاسة في الدنيا والآخرة، والمتأمل في كتاب الله تعالى، يجد أن الآيات التي تحدثت عن هذه القضية هى آيات مكية؛ وذلك أن القرآن المكي جاء في معظمه لغرس العقيدة، والعمل على تزكية الأنفس واستشعارها عظمة ربها، وأن كل نفس ستسأل في الآخرة عمَّا عملته في حياتها الدنيا، وقد تحدث القرآن الكريم عن هذه القضية في عدد من الآيات القرآنية ومن هذه الآيات قوله تعالى ﴿ مَّنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا فَلِنَفۡسِهِۦۖ وَمَنۡ أَسَآءَ فَعَلَيۡهَاۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ ﴾[فصلت: ٤٦]، قال الإمام الطبري في تفسيره لهذه الآية:" أي: من عمل بطاعة الله في هذه الدنيا، فائتمر لأمره، وانتهى عما نهاه عنه ﴿فَلِنَفۡسِهِۦ﴾ أي: فلنفسه عمل ذلك الصالح من العمل؛ لأنه يجازى عليه جزاءه، فيستوجب في المعاد من الله الجنة، والنجاة من النار ﴿وَمَنۡ أَسَآءَ فَعَلَيۡهَاۗ﴾ يقول: ومن عمل بمعاصي الله فيها، فعلى نفسه جنى؛ لأنه أكسبها بذلك سخط الله، والعقاب الأليم﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ ﴾ أي: وما ربك يا

محمد بحامل عقوبة ذنب مذنب على غير مكتسبه، بل لا يعاقب أحدا إلا على جرمه الذي اكتسبه في الدنيا، أو على سبب استحقه به منه"[٩١].

وقال الشيخ الشنقيطي:" وفي هذه الآيات سؤال معروف، وهو أن لفظة ﴿بِظَلَّٰمٍ﴾ فيها صيغة مبالغة، ومعلوم أن نفي المبالغة، لا يستلزم نفي الفعل من أصله، والجواب عن هذا الإشكال من أربعة أوجه :

الأول: أن نفي صيغة المبالغة في الآية المذكورة في الآية قوله تعالى: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾، قد بيَّنت آيات كثيرة أن المراد به نفي الظلم من أصله، والآيات الدالة على ذلك كثيرة معروفة، منها قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾[النساء: ٤٠] وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْـًٔا وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾[يونس: ٤٤].

الوجه الثاني: أن الله جلَّ وعلا نفي ظلمه للعبيد، والعبيد في غاية الكثرة، والظلم المنفي عنهم تستلزم كثرتهم، فناسب ذلك الإتيان بصيغة المبالغة للدلالة على كثرة المنفي عنهم الظلم، إذ لو وقع على كل عبد ظلم ولو قليلا، كان مجموع ذلك الظلم في غاية الكثرة، وبذلك تعلم أن التعبير بصيغة المبالغة، المراد به نفي أصل الظلم، عن كل عبد من أولئك العبيد، الذين هم

([٩١]) تفسير الطبري ٢١/ ٤٨٧.

في غاية الكثرة، والله سبحانه وتعالى منزه عن الظلم كما بينته الآيات القرآنية المذكورة في ذلك، ومن الأحاديث الدالة على ذلك ماروه الأمام مسلم في صحيح، عن أبي ذر رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه و سلم، فيما روى عن الله تبارك وتعالى أنه قال:" يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرما فلا تظالموا [٩٢]، وهذا الوجه أشار ليه الزمخشري في تفسيره[٩٣].

الوجه الثالث: ما ذكره بعض علماء العربية وبعض المفسرين، من أن المراد بالنفي في قوله ﴿ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾، نفي نسبة الظلم إليه، وعلى هذا حمل المحققون قوله تعالى:﴿ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾ أي بذي ظلم"[٩٤]

ومثل هذه الآية في قوله تعالى: ﴿ مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۖ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴾ [الجاثية: ١٥]، قال الإمام الطبري في تفسيره لهذه الآية:" من عمل من عباد الله بطاعته فانتهى إلى أمره، وانزجر عن نهيه، فلنفسه عمل ذلك العمل الصالح، وطلب خلاصها من عذاب الله، أطاع ربه لا لغير ذلك، لأنه لا ينفع ذلك غيره، والله عن عمل كل عامل غني﴿وَمَنْ

([٩٢]) صحيح مسلم برقم(٤٦٧٤).

([٩٣]) الكشاف، للزمخشري ٢/ ٢٢٩.

([٩٤]) أضواء البيان، للشنقيطي ٧/ ١٣٥، باختصار وتصرف.

﴿ أَسَآءَ فَعَلَيۡهَاۚ ﴾ أي: ومن أساء عمله في الدنيا بمعصيته فيها ربه، وخلافه فيها أمره ونهيه، فعلى نفسه جنى؛ لأنه أو بقها بذلك، وأكسبها به سخطه، ولم يضر أحدا سوى نفسه﴿ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم تُرۡجَعُونَ ﴾ يقول: ثم أنتم أيها الناس أجمعون إلى ربكم تصيرون من بعد مماتكم، فيجازى المحسن منكم بإحسانه، والمسيء بإساءته، فمن ورد عليه منكم بعمل صالح، جوزي من الثواب صالحا، ومن ورد عليه منكم بعمل سيئ جوزي من الثواب سيئا"[٩٥].

ومما يدل على هذا المعنى قوله تعالى:﴿ قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَكُمُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكُمۡۖ فَمَنِ ٱهۡتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهۡتَدِي لِنَفۡسِهِۦۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيۡهَاۖ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيۡكُم بِوَكِيلٖ ﴾ [يونس: ١٠٨]،

قال الشيخ الشعراوي في تفسيره لهذه الآية:" وإذا كان الإنسان منا يقبل أن يتعب؛ ليتعلم حرفة أو عملا أو صنعة أو مهنة؛ ليسكب الإنسان من إتقان هذا العمل بقية عمره، أليس على هذا الإنسان أن يُقْبل على العبادة التي تُصْلح باله، وتسرع به إلى الغاية انسجاما مع النفس، ومع المجتمع، وتقويما وتهذيبا لشهوات النفس، وينال من بعد ذلك خلود النعيم في الآخرة، وكلما كانت الثمرة التي يريدها الإنسان أينع وأطول عمرا كانت الخدمة من أجلها أطول، وقارن بين خدمتك لدينك في الدنيا بما ينتظرك من نعيم الآخرة؛

---

(٩٥) تفسير الطبري ٢٢/ ٦٨.

وسوف تجد المسافة بين عطاء الدنيا وعطاء الآخرة شاسعا، ولا مقارنة؛ لهذا قال تعالى: ﴿ فَمَنِ ٱهۡتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهۡتَدِي لِنَفۡسِهِۦۖ ﴾؛ لأن حصيلة هدايته لا تعود على من خلقه وهداه، بل تعود عليه هو نفسه انسجاما مع الكون، وإصلاحا لذات النفس، وراحة بال، واطمئنانا، وهذا الحال عكس ما يعيشه من ضلت نفسه عن الهداية، ويقول الحق سبحانه عن هذا الصنف من الناس: ﴿ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيۡهَاۖ ﴾، وكلمة ﴿ عليها ﴾ في الآية تفيد الاستعلاء على النفس، أي: أنك بالضلال والعياذ بالله تستعلي على نفسك، وتكُبَّ رأسك إلى الهاوية، وكلمة ﴿ ضَلَّ ﴾ تدل على أن الإنسان الذي يضل كانت به بداية هداية، لكنه ضل عنها.

ويُنْهي الحق سبحانه وتعالى الآية بقوله: ﴿ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيۡكُم بِوَكِيلٖ ﴾ أي: أنا لا أقدر أن أدفع عن أنفسكم الضلال، أو أجبركم على الهداية؛ لأني لست وكيلا عليكم، بل عليَّ فقط مهمة البلاغ عن الله سبحانه وتعالى، وهذا البلاغ إن استمعتم إليه اهتديتم؛ فالخير لكم؛ لأن الجزاء سيكون خلودا في نعيم تأخذونه مقابل تطبيق المنهج الذي ضيق على شهوات النفس، ولكنه يهدي حياة نعيم لا يفوته الإنسان ، ولا تفوت النعم فيه الإنسان. " [٩٦].

([٩٦]) تفسير الشعراوي صـ ٤١٠٥.

فالله تعالى جعل قاعدة التي لا تتغير ولا تتبدل في الدنيا ولا في الآخرة؛ وهي أن عمل الإنسان كله لنفسه سواء أكان هذا العمل صالحاً أم طالحا، وتعود على نفسه ثماره ونتائجه، والجزاء في الآخرة ثمرة طبيعية لعمل الإنسان في الحياة الدنيا، فالإنسان مسؤولا عن نفسه، إن شاء أحسن إليها، وإن شاء أساء، لا يلومن بعد ذلك إلا نفسه حين يحق عليها الجزاء، وتنال العقوبة العادلة في الآخرة.

المبحث الرابع: قتل النفس الانسانية وازهاقها وبذلها

النفس الإنسانية هى وديعة الله عند لإنسان، وبالتالي لا يحق لأيِّ إنسان إلحاق الضرر بها، وقد أمر الله بحفظ هذه النفس والقيام على مصالحها والبعد عن كل ما يضرها أو يؤدي إلى قتلها أو ازهاقها وبذلها بغير وجه حق، وهذا ما سنتناوله في هذا المبحث في ثلاثة مطالب على النحو التالي:

المطلب الأول: النهي عن قتل النفس الإنسانية بغير حق

حرَّم الإسلام قتل النفس الإنسانية بغير وجه حق، وقد وردت في هذا المجال آيات قرآنية كثيرة، ومن هذه الآيات القرآنية قوله تعالى﴿ وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۗ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا فَلَا يُسْرِف فِّى ٱلْقَتْلِ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا ﴾ [الإسراء: ٣٣]، " قال الإمام الرازي في تفسيره لهذه الآية:" حكم الله تعالى في هذه الآية أن الأصل في القتل هو التحريم فقوله تعالى: ﴿ وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ﴾ نهي وتحريم، وقوله: ﴿ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ ﴾ إعادة لذكر التحريم على سبيل التأكيد، ثم استثنى عنه الأسباب العرضية فقال:﴿ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ﴾ مجمل؛ لأنه ليس فيه بيان ذلك الحق، وقوله:

﴿وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا﴾ بيانا لذلك المجمل، كأنه تعالى قال: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ وذلك الحق هو أن من قُتِلَ مظلوما فقد جعلنا لوليه سلطانا في استيفاء القصاص.

ودلت آية أخرى على وجود سبب ثاني لجواز قتل النفس الانسانية بالحق وهو الإفساد في الأرض بالحرابة، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُا۟ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓا۟ أَوْ يُصَلَّبُوٓا۟ أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَٰفٍ أَوْ يُنفَوْا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ﴾ [المائدة: ٣٣]

ودلَّت آية أخرى على وجود سبب ثالث لجواز لقتل النفس بالحق وهذا السبب هو قتل المحاربين من أهل الكفر، قال تعالى: ﴿قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُوا۟ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ﴾ [التوبة: ٢٩]

ودلَّت السنة على أن ذلك الحق هو أحد أمور ثلاثة: فعن عثمان ابن عفان رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "لا يحل دم امرئ مسلم إلا بإحدى ثلاث: رجل زنى بعد إحصان أو ارتد بعد إسلام أو قتل نفسا بغير حق فيقتل به"[٩٧] .

([٩٧]) صحيح الجامع الصغير، للألباني، برقم(٧٦٤١).

وأهل العلم قد تكلموا واختلفوا في أشياء أخرى هل يقتل صاحبها بالحق إن فعلها، **فمن ذلك** تارك الصلاة هل يقتل أم لا؟ فعند الشافعي رحمه الله يقتل، وعن أبي حنيفة رحمه الله لا يقتل، **وثانيها**: أن فعل اللواط هل يوجب القتل؟ فعند الشافعي يوجب، وعند أبي حنيفة لا يوجب، **وثالثها**: أن الساحر إذا قال: قَتَلْتُ بسحري فلانا فعند الشافعي يوجب القتل، وعند أبي حنيفة لا يوجب، **ورابعها**: أن القتل بالمثقل هل يوجب القصاص؟ فعند الشافعي يوجب، وعند أبي حنيفة لا يوجب، **وخامسها**: أن الامتناع من أداء الزكاة هل يوجب القتل أم لا؟ اختلفوا فيه في زمان أبي بكر، **وسادسها**: أن إتيان البهيمة هل يوجب القتل، فعند أكثر الفقهاء لا يوجب، وعند قوم يوجب"[٩٨].

واختلفوا أهل التفسير بالمراد بالإسراف في القتل في هذه الآية على أقوال خمسة ذكرها الإمام ابن الجوزي **أحدها**: أن يَقْتُلْ غير القاتل، قاله ابن عباس، والحسن، **والثاني**: أن يَقْتُلْ اثنين بواحد، قاله سعيد بن جبير، **والثالث**: أن يَقْتُلْ أشرف من الذي قُتِلْ، قاله ابن زيد، **والرابع**: أن يمثل، قاله قتادة، **والخامس**: أن يتولى هو قتل القاتل دون السلطان، ذكره الزجاج.

أمَّا قوله تعالى:﴿ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا ﴾ أي: معانا عليه، وفي هاء الكناية في قوله ﴿إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا ﴾ أربعة أقوال:

([٩٨]) تفسير الرازي ١٠/ ٤٥، باختصار، وتصرف.

أحدها: أنها ترجع إلى الولي، فالمعنى: إنه كان منصورا بتمكينه من القود، قاله قتادة، والجمهور، **والثاني:** أنها ترجع إلى المقتول، فالمعنى: إنه كان منصورا بقتل قاتله، قاله مجاهد، **والثالث:** أنها ترجع إلى الدم، فالمعنى: إن دم المقتول كان منصورا، أي: مطلوبا به، **والرابع:** أنها ترجع إلى القتل، ذكره الفراء"[٩٩] .

وقريبا من معنى هذه الآية قوله تعالى:﴿ وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾[الأنعام: ١٥١]، قال الإمام الطبري في تفسيره لهذه الآية:" يقول تعالى ذكره:﴿ وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ﴾، يعني بالنفس التي حرم الله قتلها، نفس مؤمن أو معاهد وقوله: ﴿إِلَّا بِٱلْحَقِّ ﴾، يعني بما أبيح قتلها به: من كأن تقتل نفسا فتقتل قودا بها، أو تزني وهي محصنة فَتُرجم، أو ترتد عن دينها الحق فتقتل، فذلك ﴿بِٱلْحَقِّ ﴾ الذي أباح الله جل ثناؤه قتل النفس التي حرم على المؤمنين قتلها به﴿ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ ﴾، يعني هذه الأمور التي عهد إلينا فيها ربنا أن لا نأتيه وأن لا ندعه، هي الأمور التي وصانا أن نعمل جميعا به ﴿ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾، يقول: وصَّاكم بذلك لتعقلوا ما وصاكم به ربكم"[١٠٠].

---

(٩٩) زاد المسير، لابن الجوزي ٤/ ١٦٠، باختصار وتصرف يسير.

(١٠٠) تفسير الطبري ١٢/ ٢٢٠.

وقال سيد قطب:" النفس في هذه الآية عامة، وهذا يوحي بأن كل قَتْل فردي إنما يقع على جنس النفس في عمومه، تؤيد هذا الفهم آية: ﴿ مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ۚ وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم بَعْدَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ ﴾ [المائدة: ٣٢] فالاعتداء إنما يقع على حق الحياة ذاتها، وعلى النفس البشرية في عمومها، وعلى هذه القاعدة كفل الله حرمة النفس ابتداء، وهناك طمأنينة الجماعة المسلمة في دار الإسلام وأمنها، وانطلاق كل فرد فيها ليعمل وينتج آمنا على حياته، لا يؤذى فيها إلا بالحق، والحق الذي تؤخذ به النفس بينه الله في شريعته، ولم يتركه للتقدير والتأويل، وقوله تعالى﴿ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾، وهذا التعقيب يجيء وفق المنهج القرآني في ربط كل أمر وكل نهي بالله، تقريرا لوحدة السلطة التي تأمر وتنهى في الناس، وربطا للأوامر والنواهي بهذه السلطة التي تجعل للأمر والنهي وزنه في ضمائر الناس "(١٠١).

(١٠١) في ظلال القرآن، لسيد قطب٣/ ١٧٢، باختصار وتصرف.

عقوبات قاتل النفس

ومما يدل على عِظَم جريمة قتل النفس التي حرَّمها الله إلاَّ بالحق ما رتَّب الله تعالى على هذه الجريمة من عقوبة في الآخرة إن لم تب صاحبها إلى الله تعالى أو إن لم تتداركه رحمة الله تعالى، قال تعالى:﴿ وَٱلَّذِينَ لَا يَدۡعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقۡتُلُونَ ٱلنَّفۡسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَلَا يَزۡنُونَۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ يَلۡقَ أَثَامٗا ٦٨ يُضَٰعَفۡ لَهُ ٱلۡعَذَابُ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَيَخۡلُدۡ فِيهِۦ مُهَانًا ٦٩ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلٗا صَٰلِحٗا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمۡ حَسَنَٰتٖۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ٧٠ ﴾ [الفرقان: ٦٨- ٧٠].

سبب نزول هذه الآية:

عن ابن عباس رضي الله عنهما أن ناسا من أهل الشرك كانوا قد قتلوا وأكثروا وزنوا وأكثروا فأتوا محمدا صلى الله عليه وسلم فقالوا: إن الذي تقول وتدعو إليه لحسن لو تخبرنا أن لما عملنا كفارة قوله تعالى:﴿ وَٱلَّذِينَ لَا يَدۡعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقۡتُلُونَ ٱلنَّفۡسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَلَا يَزۡنُونَۚ ﴾ (١٠٢)

قال سيد قطب في تفسيره لهذه الآية:" ويكثر في السياق القرآني مجيء النهي عن هذه المنكرات الثلاثة متتابعة: الشرك، والزنا، وقتل النفس، ذلك

---

(١٠٢) صحيح البخاري برقم(٤٤٣٦).

أنها كلها جرائم قتل في الحقيقة! الجريمة الأولى جريمة قتل للفطرة؛ والثانية جريمة قتل للجماعة، والثالثة جريمة قتل للنفس المفردة، إن الفطرة التي لا تعيش على التوحيد فطرة ميتة، والجماعة التي تشيع فيها الفاحشة جماعة ميتة، منتهية حتما إلى الدمار، والمجتمع الذي تشيع فيه المقاتل والثارات، مجتمع مهدد بالدمار، ومن ثم يجعل الإسلام عقوبة هذه الجرائم في أقسى العقوبات؛ لأنه يريد حماية مجتمعه من عوامل الدمار" [١٠٣]

وقد حذَّر النبي صلى الله عليه وسلم من جريمة قتل النفس بغير حق، فعن البراء بن عازب أن رسول الله صلى الله عليه و سلم قال:" **لزوال الدنيا أهون على الله من قتل مؤمن بغير حق**"[١٠٤]

وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:" **أول ما يقضى بين الناس يوم القيامة في الدماء:** [١٠٥]

وعن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم قال:" **يجيء المقتول بالقاتل يوم القيامة ناصيته ورأسه بيده وأوداجه تشخب دما يقول يا رب هذا قتلني حتى يدنيه من العرش**" قال فذكروا لابن عباس التوبة فتلا هذه الآية ﴿ وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ

([١٠٣]) في ظلال القرآن، لسيد قطب،٣/ ١٧٢، باختصار.

(١٠٤) صحيح ابن ماجه برقم(٢٦٠٩).

(١٠٥) صحيح البخاري برقم(٦٠٥٢).

عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا ﴿٩٣﴾ ﴾ [النساء: ٩٣] قال ما نسخت هذه الآية ولا بدلت [١٠٦]

وقد جاء النهي والزجر والوعيد في قتل المعاهد، وهو المستأمن من أهل الحرب، فعن عبد الله بن عمرو ابن العاص رضي الله عنهما، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "**من قتل معاهدا لم يرح رائحة الجنة، وإن ريحها توجد من مسيرة أربعين عاما**"[١٠٧]، وعن أبي هريرة، رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال:"**من قتل معاهدا له ذمة الله وذمة رسوله، فقد أخفر بذمة الله، فلا يرح رائحة الجنة، وإن ريحها ليوجد من مسيرة سبعين خريفا**"[١٠٨]

هل لقاتل النفس المؤمنة عمداً من توبة؟

وقد توعد الله قاتل النفس المؤمنة عمدا بعقوبات شديدة، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا ﴾ [النساء: ٩٣] قال الإمام

---

(١٠٦) سنن الترمذي برقم(٣٠٢٩)، ة قال عنه الترمذي: هذا حديث حسن، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة برقم (٢٦٩٧).

(١٠٧) صحيح البخاري برقم(٢٩٣٠).

(١٠٨) صحيح الترمذي برقم(١٤٠٣).

ابن الجوزي:" اختلف العلماء في هذه الآية هل هي محكمة أم منسوخة؟ فقال قوم: هي محكمة، واحتجوا بأنها خبر، والأخبار لا تحتمل النسخ، ثم افترق هؤلاء فرقتين، إحداهما قالت: هي على ظاهرها، وقاتل المؤمن مخلد في النار، والفرقة الثانية قالت: هي عامة قد دخلها التخصيص، بدليل أنه لو قتله كافر، ثم أسلم الكافر، انهدرت عنه العقوبة في الدنيا والآخرة، فإذا ثبت كونها من العام المخصص، فأي دليل صَلُحَ للتخصيص، وجب العمل به، ومن أسباب التخصيص أن يكون قتله مستحلا، فيستحق الخلود لاستحلاله، وقال قوم: هي مخصوصة في حق من لم يتب، واستدلوا بقوله تعالى في الفرقان: ﴿ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٠﴾ ﴾ [الفرقان: ٧٠] وقال آخرون: هي منسوخة بقوله:﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾[النساء: ٤٨] "[١٠٩] .

ورجح الإمام الشوكاني قبول توبة القاتل، حيث قال رحمه الله:" والحق أن باب التوبة لم يغلق دون كل عاص، بل هو مفتوح لكل من قصده ورام الدخول منه، وإذا كان الشرك، وهو أعظم الذنوب وأشدها تمحوه التوبة إلى الله، ويقبل من صاحبه الخروج منه، والدخول في باب التوبة، فكيف بما دونه من المعاصي التي من جملتها القتل عمدا؟ لكن لا بد في توبة قاتل العمد من الاعتراف بالقتل، وتسليم نفسه للقصاص إن كان واجبا، أو تسليم الدية

([١٠٩]) زاد المسير، لابن الجوزي ٢/ ٨٥.

إن لم يكن القصاص واجبا، وكان القاتل غنيا متمكنا من تسليمها، أو بعضها، وأما مجرد التوبة من القاتل عمدا، وعزمه على أن لا يعود إلى قتل أحد من دون اعتراف، ولا تسليم نفس، فنحن لا نقطع بقبولها، والله أرحم الراحمين، هو الذي يحكم بين عباده فيما كانوا فيه يختلفون"(١١٠).

فإذا علم المسلم خطورة قتل النفس التي حرم الله إلا بالحق، والعقوبات المترتبة على ذلك، ابتعد عن كل الطرق والوسائل التي قد توقعه في هذه الكبيرة من كبائر الذنوب.

(١١٠) فتح القدير، للشوكاني ٢/ ١٩١.

حرمة قتل الإنسان لنفسه (الانتحار)

وكما أنه يحرم على الإنسان قتل نفس غيره بغير حق، فإنه يحرم عليه كذلك قتل نفسه بأي حال من الأحوال، وهو ما يسمى بالانتحار، وقد جاء النهي عن ذلك في قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٢٩﴾ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ عُدْوَٰنًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًاۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿٣٠﴾ ﴾ [النساء: ٢٩ـ ٣٠] قال الشيخ الشعراوي:" قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْۚ ﴾ "لا يقتل نفسه إلا إنسان وجد نفسه في ظرف لا يستطيع أن يخرج منه، وهذا ما يفعله المنتحر، ونقول للمنتحر: هل أنت من وهبت الحياة لنفسك؟ الجواب لا، ولذلك فواهب الحياة هو الذي يأخذها، ويذيل الحق تبارك وتعالى الآية بقوله: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴾، فحينما ينهاني الحق عن أن أقتل نفسي أو أقتل غيري، فهذا منتهى الرحمة .

ونقول لمن يفكر بقتل نفسه انتحارا: أنت نظرت لنفسك كإنسان معزول عن خالق أعلى، لكن المؤمن لا يعزل نفسه عن خالقه؛ فساعة يأتيه ظرف فوق أسبابه ولا يقوي عليه فعليه أن يفكر وهل أنا في الكون وحدي؟ الجواب: لا، إن لي ربا، وما دام لي رب فأنا لا أقدر على حل ظروفي ومشاكلي وهو سبحانه يقدر على ذلك، فيلجأ إلى ربه ومولا، وهنا يطرد فكرة الانتحار من رأسه، ومن ينتحر مُسْتَحِلاً لذلك لا يدخل الجنة؛ لأنه لم يتذكر أن له إلها

وتعدي على قتل نفسه المحرم عليه قتلها، قال تعالى: ﴿ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ عُدْوَٰنًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴾" (١١١).

وقد ذكر النبي صلى الله عليه وسلم جملة من الأحاديث، يحذر فيها من خطورة الوقوع في جريمة أن بقتل الانسان نفسه منتحرا، ومن هذه الأحاديث، عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال:" **من تردى من جبل فقتل نفسه، فهو في نار جهنم يتردى فيه خالدا مخلدا فيها أبدا، ومن تحسى سما فقتل نفسه فسمه في يده يتحساه في نار جهنم خالدا مخلدا فيها أبدا، ومن قتل نفسه بحديدة فحديدته في يده يجأ بها في بطنه في نار جهنم خالدا مخلدا فيها أبد ا**"(١١٢).

وعن جندب بن عبد الله البجلي قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "**كان رجل ممن كان قبلكم وكان به جرح، فأخذ سكينا نحر بها يده، فما رقأ الدم حتى مات، قال الله عز وجل: عبدي بادرني بنفسه، حرمت عليه الجنة**"(١١٣)

وعن أبي هريرة قال شهدنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم حنينا فقال لرجل ممن يدعى بالإسلام:" **هذا من أهل النار**"، فلما حضرنا القتال قاتل

---

(١١١) تفسير الشعراوي صـ ١٤٦٩، باختصار وتصرف.

(١١٢) صحيح البخاري برقم(٥٣٣٣).

(١١٣) صحيح البخاري برقم(٣٢٠٤).

الرجل قتالا شديدا فأصابته جراحة فقيل يا رسول الله: الرجل الذي قلت له آنفا إنه من أهل النار فإنه قاتل اليوم قتالا شديدا، وقد مات فقال النبي صلى الله عليه وسلم:" **إلى النار**" فكاد بعض المسلمين أن يرتاب فبينما هم على ذلك إذ قيل إنه لم يمت، ولكن به جراحا شديدا فلما كان من الليل لم يصبر على الجراح فقتل نفسه فأخبر النبي صلى الله عليه وسلم بذلك فقال:" **الله أكبر أشهد أني عبد الله ورسوله**" ثم أمر بلالا فنادى في الناس أنه:" **لا يدخل الجنة إلا نفس مسلمة، وأن الله يؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر**"[١١٤]

وعن عمرو بن العاص انه قال: لما بعثه رسول الله صلى الله عليه وسلم عام ذات السلاسل قال: احتلمت في ليلة باردة شديدة البرد فأشفقت ان اغتسلت أن أهلك، فتيممت ثم صليت بأصحابي صلاة الصبح، قال فلما قدمنا على رسول الله صلى الله عليه وسلم ذكرت ذلك له فقال: يا عمرو صليت بأصحابك وأنت جنب؟ قال قلت: نعم يا رسول الله، إني احتلمت في ليلة باردة شديدة البرد فأشفقت إن اغتسلت أن أهلك، وذكرت قول الله عز وجل ﴿ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴾ فتيممت ثم صليت، فضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولم يقل شيئا"[١١٥]

---

(١١٤) صحيح مسلم برقم(١٦٢).

(١١٥) مسند الإمام أحمد برقم(١٧٨٤٥)، وقال عنه شعيب الأرناؤوط: حديث صحيح وهذا إسناد ضعيف، فيه عبد الله بن لهيعة وهو سيئ الحفظ.

المطلب الثاني: إزهاق النفس وبذلها

يختلف الناس في بذلهم لأنفسهم، فمنهم من يبذلها ابتغاء مرضاة الله تعالى؛ لنيل ما عند الله من الدرجات العالية في الجنة، فيسعى لبذل نفسه في سبيل الوصول إلى هذه الغاية، ومن الناس من يبذل نفسه في طرق تؤدي به إلى مساخط الله وغضبه سوف ينتظم الحديث في هذا المطلب في فرعين على النحو التالي:

الفرع الأول: ازهاق أنفس المنافقين

الأموال والأولاد قد تكون نعمة على عبد من عباده؛ وذلك حين يوفقه الله تعالى لشكر هذه النعمة، وقد تكون الأموال والأولاد نقمة على صاحبها، إذا لم يودِ شكر الله هذه النعمة، وشحَّت نفسه بها واستخدمها في معاصي الله تعالى ومحاربة الله ورسوله، فيعذبه الله بها عند موته فتزهق نفسه وهو من الكافرين، وهذه الحالة تنطبق على المنافقين، قال تعالى في وصف حال المنافقين عند موتهم:﴿ فَلَا تُعۡجِبۡكَ أَمۡوَٰلُهُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُهُمۡۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَتَزۡهَقَ أَنفُسُهُمۡ وَهُمۡ كَٰفِرُونَ ﴾[التوبة: ٥٥] قال الإمام الشوكاني في تفسيره لهذه الآية قوله تعالى:"المعنى: فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم في الحياة الدنيا، إنما يريد الله ليعذبهم بها في الآخرة لأنهم منافقون، فهم ينفقون

كارهين، فيعذبون بما ينفقون، قوله:﴿وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴾ الزهوق: الخروج بصعوبة، والمعنى: أن الله يريد أن تزهق أنفس المنافقين وتخرج أرواحهم حال كفرهم لعدم قبولهم لما جاءت به الأنبياء وأرسلت به الرسل، وتصميمهم على الكفر وتماديهم في الضلالة"(١١٦).

وقال سيد قطب عند هذه الآية:" والتعبير بقوله تعالى: ﴿ وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴾ يلقي ظل الفرار لهذه النفوس أو الهلاك، ظلا مزعجا لا هدوء فيه ولا اطمئنان، فيتسق هذا الظل مع ظل العذاب في الحياة الدنيا بالأموال والأولاد، فهو القلق والكرب في الدنيا والآخرة، وما يحسد أحد على هذه المظاهر التي تحمل في طياتها البلاء!

ولقد كان أولئك المنافقون يدسون أنفسهم في الصف، لا عن إيمان واعتقاد، ولكن عن خوف وتقية، وعن طمع ورهب، ثم يحلفون أنهم من المسلمين، فجاءت سورة التوبة تفضحهم وتكشفهم على حقيقتهم، فهي الفاضحة التي تكشف رداء المداورة وتمزق ثوب النفاق"(١١٧).

وهناك آية أخرى جاءت في نفس سورة التوبة تتحدث عن المنافقين و تدل على معنى قريب لهذه الآية، مع اختلاف بسيط بينهما، وهي قوله تعالى:﴿ وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَأَوْلَٰدُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ

---

(١١٦) فتح القدير، للشوكاني ٣/ ٢٦٧، باختصار وتصرف

(١١٧) في ظلال القرآن ، لسيد قطب ٤/ ٣٨، باختصار.

أَنفُسُهُمۡ وَهُمۡ كَٰفِرُونَ ﴾ [التوبة: ٨٥]، وقد وضَّح ابن عاشور الفرق بين هاتين الآيتين قائلا:" أعيدت الآية بغالب ألفاظها هنا تأكيدا للمعنى الذي اشتملت عليه، ولكن هذه الآية خالفت السابقة بأمور:

أحدها: أن هذه الآية جاء العطف في أولها بالواو والأخرى عطفت بالفاء، وهذه الآية عطف فيها الأولاد على الأموال بدون إعادة حرف النفي، وفي الآية السالفة أعيدت (لا) النافية، ووجه ذلك أن ذكر الأولاد في الآية السالفة لمجرد التكملة والاستطراد إذ المقام مقام ذم أموالهم إذ لم ينتفعوا بها فلما كان ذكر الأولاد تكملة كان شبيها بالأمر المستقل فأعيد حرف النفي في عطفه، بخلاف مقام هذه الآية فإن أموالهم وأولادهم معا مقصود تحقيرهما في نظر المسلمين.

ثانيها: أنه جاء في هذه الآية ﴿ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِي ٱلدُّنۡيَا ﴾ وجاء في الآية السالفة ﴿ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا ﴾ ونكتة ذلك أن الآية السالفة ذكرت حالة أموالهم في حياتهم فلم تكن حاجة إلى ذكر الحياة، وهنا ذكرت حالة أموالهم بعد مماتهم لقوله: ﴿ وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٖ مِّنۡهُم مَّاتَ أَبَدٗا ﴾ [التوبة: ٨٤] فقد صاروا إلى حياة أخرى وانقطعت حياتهم الدنيا وأصبحت حديثا، والخطاب للنبيء صلى الله عليه وسلم والمقصود به المسلمون، أي لا تعجبكم.

ومناسبة ذكر هذا الكلام هنا أنه لما ذكر ما يدل على شقاوتهم في الحياة الآخرة كان ذلك قد يثير في نفوس الناس أن المنافقين حصلوا سعادة الحياة

الدنيا بكثرة الأموال والأولاد وخسروا الآخرة، وربما كان في ذلك حيرة لبعض المسلمين أن يقولوا: كيف مَنَّ الله عليهم بالأموال والأولاد وهم أعداؤه وبغضاء نبيئه، وربما كان في ذلك أيضا مسلاة لهم بين المسلمين، فأعلم الله المسلمين أن تلك الأموال والأولاد وإن كانت في صورة النعمة فهي لهم نقمة وعذاب، وأن الله عذبهم بها في الدنيا بأن سلبهم طمأنينة البال عليها؛ لأنهم لما اكتسبوا عداوة الرسول والمسلمين كانوا يحذرون أن يغري الله رسوله بهم فيستأصلهم، كما قال: ﴿لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْمُرْجِفُونَ فِى ٱلْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلًا﴾[الأحزاب: ٦٠]، ثم جعل ذلك مستمرا إلى موتهم على الكفر الذي يصيرون به إلى العذاب الأبدي، فأفيد هنالك عدم انتفاعهم بأموالهم وأنها عذاب عليهم في الدنيا"[١١٨].

فالمؤمن الصادق في إيمانه لا يغتر بأحوال أهل الكفر النفاق، وماهم عليه من متاعٍ زائل، وليوقن أن ما هم فيه من كثرة الأموال والأولاد إنما هو استدراج من الله تعالى لهم؛ حتى يُشغلوا بذلك عن الله والدار الآخرة، وسيدركون حقيقة ذلك حين تخرج أنفسهم من أجسادهم وهم كافرون بالله تعالى.

([١١٨]) التحرير والتنوير، لابن عاشور ١٠/ ٢٨٦، باختصار وتصرف.

الفرع الثاني: بذل المؤمنين لأنفسهم

ومن الآيات القرآنية الدالة على ذلك قوله تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡرِي نَفۡسَهُ ٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ رَءُوفُۢ بِٱلۡعِبَادِ ﴾ [البقرة: ٢٠٧]

سبب نزول هذه الآية

لهذه الآية سبب نزول، فعن عكرمة قال: لما خرج صهيب مهاجرا تبعه أهل مكة، فنثل كنانته، فأخرج منها أربعين سهما فقال: لا تصلون إلي حتى أضع في كل رجل منكم سهما ثم أصير بعده إلى السيف فتعلمون أني رجل وقد خلفت بمكة قينتين فهما لكم قال: وحدثنا حماد بن سلمة بن ثابت عن أنس نحوه ونزلت على النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡرِي نَفۡسَهُ ٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِ ٱللَّهِۗ ﴾ الآية فلما رآه النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم قال: " أبا يحيى ربح البيع" قال وتلا عليه الآية"(١١٩).

قال الإمام الرازي في تفسيره لهذه الآية:" لفظة الشراء يمكن إجراؤها على ظاهرها؛ وذلك أن من أقدم على الكفر والشرك والتوسع في ملاذ الدنيا والإعراض عن الآخرة وقع في العذاب الدائم فصار في التقدير كأن نفسه كانت له، فبسبب الكفر والفسق خرجت عن ملكه وصارت حقا للنار والعذاب، فإذا ترك الكفر والفسق وأقدم على الإيمان والطاعة صار كأنه

---

(١١٩) مستدرك الحاكم جـ٣ ص٣٩٨ ، وقال عنه الحاكم صحيح على شرط مسلم ولم يخرجه.
وينظر: الصحيح المسند من أسباب ،النزول، لمقبل الوادعي صـ ٣٣.

اشترى نفسه من العذاب والنار فصار حال المؤمن كالمكاتب يبذل دارهم معدودة ويشتري بها نفسه، فكذلك المؤمن يبذل أنفاسا معدودة ويشتري بها نفسه أبدا، لكن المكاتب عبد ما بقي عليه درهم، فكذا المكلف لا ينجو عن رق العبودية ما دام له نفس واحد في الدنيا.

إذا عرفت هذا فنقول: يدخل تحت هذا كل مشقة يتحملها الإنسان في طلب الدين، فيدخل فيه المشتري نفسه من الكفار بماله كما فعل صهيب، ويدخل فيه المجاهد الباذل مهجته الصابر على القتل، ويدخل فيه الآبق من الكفار إلى المسلمين، ويدخل فيه من يظهر الدين والحق عند السلطان الجائر.

وروي أن عمر رضي الله تعالى عنه بعث جيشا فحاصروا قصرا فتقدم منهم واحد، فقاتل حتى قتل فقال بعض القوم : ألقى بيده إلى التهلكة ، فقال عمر : كذبتم رحم الله أبا فلان، وقرأ ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ ﴾

ثم اعلم أن المشقة التي يتحملها الإنسان لا بد وأن تكون على وفق الشرع حتى يدخل بسببه تحت الآية، فأما لو كان على خلاف الشرع فهو غير داخل فيه بل يعد ذلك من باب إلقاء النفس في التهلكة، نحو ما إذا خاف التلف عند الاغتسال من الجنابة ففعل، قال قتادة: إن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم من المهاجرين والأنصار لما رأوا المشركين يدعون مع الله إلها آخر قاتلوا على دين الله وشروا أنفسهم غضبا لله وجهادا في سبيله.

أما قوله تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ رَءُوفُۢ بِٱلۡعِبَادِ ﴾ فمن رأفته أن النفس له والمال، ثم أنه يشتري ملكه بملكه فضلا منه ورحمة وإحسانا، ومن رأفته أنه جعل النعيم الدائم جزاء على العمل القليل المنقطع، ومن رأفته أن جَوَّز لهم كلمة الكفر إبقاء على النفس، ومن رأفته أنه لا يكلف نفسا إلا وسعها، ومن رأفته ورحمته أن المصر على الكفر مائة سنة إذا تاب ولو في لحظة أسقط كل ذلك العقاب، وأعطاه الثواب الدائم، "[١٢٠].

وقد جعل الله تعالى ثمن بذل المؤمنين لأنفسهم ابتغاء مرضاة الله تعالى الجنة، ومن الآيات القرآنية الدالة على هذا المعنى قوله تعالى:﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشۡتَرَىٰ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَنفُسَهُمۡ وَأَمۡوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلۡجَنَّةَۚ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقۡتُلُونَ وَيُقۡتَلُونَۖ وَعۡدًا عَلَيۡهِ حَقّٗا فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ وَٱلۡقُرۡءَانِۚ وَمَنۡ أَوۡفَىٰ بِعَهۡدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِۚ فَٱسۡتَبۡشِرُواْ بِبَيۡعِكُمُ ٱلَّذِي بَايَعۡتُم بِهِۦۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴾ [التوبة: ١١١].

سبب نزول هذه الآية

قال محمد بن كعب القرظي قال: قال عبد الله بن رواحة لرسول الله صلى الله عليه وسلم:" اشترط لربك ولنفسك ما شئت قال: اشترط لربي أن تعبدوه

([١٢٠]) تفسير الرازي ٣/٢٢٢، باختصار وتصرف.

ولا تشركوا به شيئا، واشترط لنفسي أن تمنعوني مما تمنعون منه أنفسكم وأموالكم قالوا :فإذا فعلنا ذلك فما لنا قال: الجنة قالوا: ربح البيع لا نقيل ولا نستقيل فنزلت هذه الآية:﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشۡتَرَىٰ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَنفُسَهُمۡ وَأَمۡوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلۡجَنَّةَۚ ﴾(١٢١).

قال سيد قطب في تفسيره لهذه الآية:" إن الدخول في الإسلام صفقة بين مُتَبايِعَين، الله سبحانه فيها هو المشتري والمؤمن فيها هو البائع، فهي بيعة مع الله لا يبقى بعدها للمؤمن شيء في نفسه ولا في ماله يحتجزه دون الله سبحانه ودون الجهاد في سبيله لتكون كلمة الله العليا، وليكون الدين كله لله، فقد باع المؤمن لله في تلك الصفقة نفسه وماله مقابل ثمن محدد معلوم، هو الجنة: وهو ثمن لا تعدله السلعة، ولكنه فضل الله ومَنَّه.

والذين باعوا هذه البيعة وعقدوا هذه الصفقة هم صفوة مختارة، ذات صفات، منها ما يختص بذوات أنفسهم في تعاملها المباشر مع الله في الشعور والشعائر؛ ومنها ما يختص بتكاليف هذه البيعة في أعناقهم من العمل خارج ذواتهم لتحقيق دين الله في الأرض من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والقيام على حدود الله في أنفسهم وفي سواهم"(١٢٢).

---

(١٢١) أسباب النول، للواحدي صـ ٢٦٦، وينظر: لباب النقول، للسيوطي صـ .

(١٢٢) في ظلال القرآن، لسيد قطب ٤/ ٨١، باختصار.

ومن علامات بذل المؤمنين لأنفسهم ابتغاء مرضات الله تعالى أن يصبِّروا أنفسهم في الموطن التي تقربهم من الله تعالى، ومن الآيات القرآنية الدالة على ذلك قوله تعالى: ﴿وَٱصۡبِرۡ نَفۡسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجۡهَهُۥۖ وَلَا تَعۡدُ عَيۡنَاكَ عَنۡهُمۡ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَا تُطِعۡ مَنۡ أَغۡفَلۡنَا قَلۡبَهُۥ عَن ذِكۡرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمۡرُهُۥ فُرُطٗا﴾ [الكهف: ٢٨].

سبب نزول هذه الآية

عن سلمان الفارسي رضي الله عنه، قال: جاءت المؤلفة قلوبهم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم: عيينة بن حصن، والأقرع بن حابس، وذووهم، فقالوا: يا رسول الله، إنك لو جلست في صدر المجلس ونحَّيْت عنا هؤلاء وأرواح جبابهم، يعنون سلمان، وأبا ذر، وفقراء المسلمين، وكانت عليهم جباب الصوف ولم يكن عليهم غيرها، جلسنا إليك وحادثناك وأخذنا عنك! فأنزل الله تعالى ﴿وَٱصۡبِرۡ نَفۡسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجۡهَهُۥۖ وَلَا تَعۡدُ عَيۡنَاكَ عَنۡهُمۡ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَا تُطِعۡ مَنۡ أَغۡفَلۡنَا قَلۡبَهُۥ عَن ذِكۡرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمۡرُهُۥ فُرُطٗا ٢٨ وَقُلِ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكُمۡۖ فَمَن شَآءَ فَلۡيُؤۡمِن وَمَن شَآءَ فَلۡيَكۡفُرۡۚ إِنَّآ أَعۡتَدۡنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمۡ سُرَادِقُهَاۚ وَإِن يَسۡتَغِيثُواْ يُغَاثُواْ بِمَآءٖ كَٱلۡمُهۡلِ يَشۡوِي ٱلۡوُجُوهَۚ بِئۡسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتۡ مُرۡتَفَقٗا ٢٩﴾ [الكهف: ٢٨ – ٢٩]، فقام النبي صلى الله عليه وسلم،

يلتمسهم حتى إذا أصابهم في مؤخر المسجد يذكرون الله تعالى قال: الحمد لله الذي لم يمتني حتى أمرني أن أصبر نفسي مع رجال من أمتي، معكم المحيا، ومعكم الممات"(١٢٣).

قال الشيخ السعدي في تفسيره:" يأمر تعالى نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم، وغيره أسوته، في الأوامر والنواهي أن يصبر نفسه مع المؤمنين العباد المنيبين ﴿ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ ﴾ أي: أول النهار وآخره يريدون بذلك وجه الله، فوصفهم بالعبادة والإخلاص فيها، ففيها الأمر بصحبة الأخيار، ومجاهدة النفس على صحبتهم، ومخالطتهم وإن كانوا فقراء فإن في صحبتهم من الفوائد، ما لا يحصى،﴿ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾ أي: لا تجاوزهم ببصرك، وترفع عنهم نظرك، فإن هذا ضار غير نافع، وقاطع عن المصالح الدينية، فإن ذلك يوجب تعلق القلب بالدنيا، فتصير الأفكار والهواجس فيها، وتزول من القلب الرغبة في الآخرة، فإن زينة الدنيا تروق للناظر، وتسحر العقل، فيغفل القلب عن ذكر الله، ويقبل على اللذات والشهوات، فيضيع وقته، وينفرط أمره، فيخسر الخسارة الأبدية، والندامة السرمدية، ولهذا قال: ﴿ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا ﴾ غفل عن الله، فعاقبه بأن أغفله عن ذكره، ﴿ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ﴾ أي: صار تبعا لهواه، حيث ما اشتهت

(١٢٣) أسباب النزول، للواحدي صـ ٣٠٦، وفي إسناده ضعف.

نفسه فَعَلَه، وسعى في إدراكه، ولو كان فيه هلاكه وخسرانه، فهو قد اتخذ إلهه هواه، ﴿ وَكَانَ أَمْرُهُۥ ﴾ أي: مصالح دينه ودنياه ﴿ فُرُطًا ﴾ أي: ضائعة معطلة، فهذا قد نهى الله عن طاعته؛ لأن طاعته تدعو إلى الاقتداء به، ولأنه لا يدعو إلا لما هو متصف به.

ودلت الآية، على أن الذي ينبغي أن يطاع، ويكون إماما للناس، من امتلأ قلبه بمحبة الله، وفاض ذلك على لسانه، فلهج بذكر الله، واتبع مراضي ربه، فقدمها على هواه، والصبر المذكور في هذه الآية، هو الصبر على طاعة الله، الذي هو أعلى أنواع الصبر، وبتمامه تتم باقي الأقسام.

وفي الآية، استحباب الذكر والدعاء والعبادة طرفي النهار؛ لأن الله مدحهم بفعله، وكل فعل مدح الله فاعله، دلَّ ذلك على أن الله يحبه، وإذا كان يحبه فإنه يأمر به، ويرغب فيه"[١٢٤].

فإذا علم المؤمن الثمن الذي سيحصل عليه إذا بذل نفسه ابتغاء مرضات الله تعالى، بذلها في المواطن التي يحبها الله ويرضاها ولم يتردد في ذلك، فالله هو وهبها لها وهو المشتري لها من العبد إذا بذلها لله سبحانه وتعالى.

([١٢٤]) تفسير السعدي صـ ٤٧٥، باختصار

المبحث الخامس: أحوال النفس الانسانية يوم القيامة

حدثنا القرآن الكريم عن حالة النفس يوم القيامة، وبيَّن الله سبحانه وتعالى أنه سوف يحاسب كل نفس على ما عملته في الدنيا، وأخبرنا أن أصحاب النفوس العاصية والمذنبة سوف تأتي تجادل عن نفسها في ذلك اليوم، على أمل أن تتخلص من مصيرها المؤلم الذي ينتظرها، وبناء على هذه المحاسبة سوف يتقرر مصير كل نفس إما إلى الجنة أو النار، وهذا ما سوف نتناوله في هذا المبحث في ستة مطالب على النحو التالي:

المطلب الأول: تحذير الله للأنفس من أهوال يوم القيامة

حذَّر الله تعالى الناس من يوم القيامة ودعاهم للقيام بالأعمال الصالحة، التي ستكون سببا لنجاتهم في ذلك اليوم، وأخبر سبحانه وتعالى أنه هو الحكم العدل في ذلك اليوم، و بيّن لهم أن لذلك اليوم قوانين للحساب والعقاب تختلف عن قوانين الناس في الدنيا، ولا يقبل الله تعالى في ذلك اليوم الفدية من أحد مقابل الحصول على النجاة من عذاب الله تعالى، ولا تنفع الشفاعة عند الله تعالى إلاَّ لمن أذن الله تعالى له بذلك ورضى عن الشافع، وقد حذَّر الله تعالى عباده من ذلك في آيات متعددة، ومن هذه الآيات قوله تعالى:

﴿ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَنِّي فَضَّلۡتُكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ٤٧ وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا لَّا

﴿ تَجۡزِي نَفۡسٌ عَن نَّفۡسٖ شَيۡـٔٗا وَلَا يُقۡبَلُ مِنۡهَا شَفَٰعَةٞ وَلَا يُؤۡخَذُ مِنۡهَا عَدۡلٞ وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ ﴾ [البقرة: ٤٧ـ ٤٨]، قال الإمام ابن كثير في تفسيره لهذه الآية:" لما ذَكَّر الله تعالى بني إسرائيل بنعمه أولا، عطف على ذلك التحذير من حلول نقمه بهم يوم القيامة فقال:﴿ وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا ﴾ يعني: يوم القيامة ﴿ لَّا تَجۡزِي نَفۡسٌ عَن نَّفۡسٖ شَيۡـٔٗا ﴾ أي: لا يغني أحد عن أحد، وقوله تعالى:﴿ وَلَا يُقۡبَلُ مِنۡهَا شَفَٰعَةٞ ﴾ يعني عن الكافرين، كما قال عن أهل النار:﴿ فَمَا تَنفَعُهُمۡ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ ﴾ [المدثر: ٤٨]، وقوله:﴿ وَلَا يُؤۡخَذُ مِنۡهَا عَدۡلٞ ﴾ قال ابن عباس: العدل البدل والفدية، فلو جاءت كل نفس يوم القيامة بملء الأرض ذهبا تفتدي به ما تقبل منها أي: لا يقبل منها فداء، كما قال تعالى:﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمۡ كُفَّارٞ فَلَن يُقۡبَلَ مِنۡ أَحَدِهِم مِّلۡءُ ٱلۡأَرۡضِ ذَهَبٗا وَلَوِ ٱفۡتَدَىٰ بِهِۦٓۗ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴾ [آل عمران: ٩١]، فأخبر تعالى أنهم إن لم يؤمنوا برسوله ويتابعوه على ما بعثه به، ووافوا الله يوم القيامة على ما هم عليه، فإنه لا ينفعهم قرابة قريب ولا شفاعة ذي جاه، ولا يقبل منهم فداء، ولو بملء الأرض ذهبا، وقوله تعالى:﴿ وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ ﴾ يعني: أنهم يومئذ لا ينصرهم ناصر، كما لا يشفع لهم شافع، ولا يقبل منهم عدل ولا فدية، بطلت هنالك المحاباة واضمحلت الرشى والشفاعات، وارتفع من القوم التعاون والتناصر، وصار الحكم إلى عدل

الجبار الذي لا ينفع لديه الشفعاء والنصراء، فيجزي بالسيئة مثلها وبالحسنة أضعافها [١٢٥].

وقال ابن عاشور في تفسيره لهذه الآية:" كانت اليهود تتوهم أو تعتقد أن نسبتهم إلى الأنبياء وكرامة أجدادهم عند الله تعالى مما يجعلهم في أمن من عقابه على العصيان والتمرد كما هو شأن الأمم في إبان جهالتها وانحطاطها، فردَّ الله تعالى عليهم زعمهم هذا بقوله:" ﴿ وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا لَّا تَجۡزِي نَفۡسٌ عَن نَّفۡسٖ شَيۡـٔٗا وَلَا يُقۡبَلُ مِنۡهَا شَفَٰعَةٞ وَلَا يُؤۡخَذُ مِنۡهَا عَدۡلٞ وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ ﴾، وتنكير النفس في الموضعين في الآية يفيد عموم النفوس، أي لا يغني أحد كائنا من كان فلا تغني عن الكفار آلهتهم ولا صلحاؤهم على اختلاف عقائدهم في غناء أولئك عنهم، فالمقصود نفي غناهم عنهم بأن يحولوا بينهم وبين عقاب الله تعالى، والشفاعة: السعي والوساطة في حصول نفع أو دفع ضر سواء كانت الوساطة بطلب من المنتفع بها أم كانت بمجرد سعي المتوسط والعَدل العوض والفداء، سمي بالمصدر؛ لأن الفادي يعدل المفدي بمثله في القيمة أو العين ويسويه به، يقال عدل كذا بكذا أي سواه به.

واتفق المسلمون على ثبوت الشفاعة يوم القيامة للطائعين والتائبين لرفع الدرجات، ولم يخالف في ذلك الأشاعرة والمعتزلة، فهذا اتفاق على تخصيص

([١٢٥]) تفسير ابن كثير ١/ ٢٥٦، باختصار.

العموم ابتداء، والخلاف في الشفاعة لأهل الكبائر[١٢٦]، فعندنا تقع الشفاعة لهم في حط السيئات وقت الحساب أو بعد دخول جهنم لما اشتهر من الأحاديث الصحيحة في ذلك، كقوله صلى الله عليه وسلم: "**لكل نبيء دعوة مستجابة وقد ادخرت دعوتي شفاعة لأمتي**"[١٢٧]، وأما الشفاعة الكبرى العامة لجميع أهل موقف الحساب الوارد فيها الحديث الصحيح المشهور[١٢٨] فإن أصول المعتزلة لا تأباها.

([١٢٦]) قال ابن أبي العز الحنفي في شرحه للعقيدة الطحاوية، بعد أن عدد أنواع الشفاعة: النوع الثامن: شفاعته صلى الله عليه وسلم في أهل الكبائر من أمته ممن دخل النار، فيخرجون منها، وقد تواترت بهذا النوع الأحاديث . وقد خفي علم ذلك على الخوارج والمعتزلة ، فخالفوا في ذلك ، جهلاً منهم بصحة الأحاديث، وعناداً ممن علم ذلك واستمر على بدعته. وهذه الشفاعة تشاركه فيها الملائكة والنبيون والمؤمنون أيضاً. وهذه الشفاعة تتكرر منه صلى الله عليه وسلم أربع مرات، ومن أحاديث هذا النوع، حديث أنس ابن مالك رضي الله عنه ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي**، رواه الإمام أحمد رحمه الله في مسندة برقم: (١٣٢٤٥)، وقال عنه شعيب الأرناؤوط إسناده صحيح، والمعتزلة والخوارج أنكروا شفاعة نبينا صلى الله عليه وسلم وغيره في أهل الكبائر، وأما أهل السنة والجماعة، فيقرون بشفاعة نبينا صلى الله عليه وسلم في أهل الكبائر، وشفاعة غيره، لكن لا يشفع أحد حتى يأذن الله له ويحد له حداً" ينظر: شرح العقيدة الطحاوية، لابن أبي العز الحنفي صـ ٩٨، باختصار.

([١٢٧]) صحيح البخاري برقم(٥٨٢٩)

([١٢٨]) عن أبي هريرة رضي الله عنه قال كنا مع النبي صلى الله عليه وسلم في دعوة فرفع إليه الذراع وكانت تعجبه فنهس منها نهسة وقال:" **أنا سيد القوم يوم القيامة، هل تدرون بم؟ يجمع الله الأولين والآخرين في صعيد واحد، فيبصرهم الناظر ويسمعهم الداعي، وتدنو منهم الشمس فيقول بعض الناس: ألا ترون إلى ما أنتم فيه إلى ما بلغكم؟ ألا تنظرون إلى من يشفع لكم إلى ربكم، فيقول بعض الناس: أبوكم آدم فيأتونه فيقولون: يا آدم أنت أبو البشر خلقك الله بيده،**

وقد تمسك المعتزلة بهذه الآية للاحتجاج لقولهم بنفي الشفاعة في أهل الكبائر يوم القيامة؛ لعموم ﴿ نَفْسٌ ﴾ في سياق النفي المقتضي أن كل نفس لا يقبل منها شفاعة وهو عموم لم يرد ما يخصصه عندهم، والجواب عليهم أن يُقال لهم: إن آيات نفي الشفاعة المراد بذلك نفي الشفاعة عن الكافرين، وإلاَّ لكان الإسلام مع ارتكاب بعض المعاصي مساويا للكفر وهذا لا ترضى به حكمة الله"(١٢٩).

ومثل هذه الآية قوله تعالى: ﴿ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَنِّي فَضَّلۡتُكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٢٢ وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا لَّا تَجۡزِي نَفۡسٌ عَن نَّفۡسٖ شَيۡـٔٗا وَلَا يُقۡبَلُ مِنۡهَا عَدۡلٞ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَٰعَةٞ وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ ١٢٣ ﴾[البقرة: ١٢٣] ، والمتأمل في في هذه الآية والآية السابقة يجد أنهما متفقتان في مطلعهما، وذلك في قوله تعالى: ﴿ وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا لَّا تَجۡزِي نَفۡسٌ عَن نَّفۡسٖ شَيۡـٔٗا ﴾ ووقع اختلاف يسير بين الآيتين في

ونفخ فيك من روحه، وأمر الملائكة فسجدوا لك، وأسكنك الجنة ألا تشفع لنا إلى ربك ألا ترى ما نحن فيه وما بلغنا؟ فيقول: ربي غضب غضبا لم يغضب قبله مثله ولا يغضب بعده مثله، ونهاني عن الشجرة فعصيته نفسي نفسي، اذهبوا إلى غيري، اذهبوا إلى نوح، فيأتون نوحا فيقولون: يا نوح أنت أول الرسل إلى أهل الأرض، وسماك الله عبدا شكورا، أما ترى إلى ما نحن فيه؟ ألا ترى إلى ما بلغنا ألا تشفع لنا إلى ربك؟ فيقول: ربي غضب اليوم غضبا لم يغضب قبله مثله ولا يغضب بعده مثله نفسي نفسي ائتوا النبي صلى الله عليه وسلم فيأتوني فأسجد تحت العرش فيقال يا محمد ارفع رأسك واشفع تشفع وسل تعطه" صحيح البخاري برقم(٣٠٩٢).

(١٢٩) التحرير والتنوير، لابن عاشور ١/ ٤٨٤، باختصار وتصرف.

الجزء الثاني منهما، فالآية الأولى جاءت بهذه الصيغة: ﴿ وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴾ والآية الثانية جاءت بهذه الصيغة: ﴿ وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَاعَةٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿١٢٣﴾ ﴾ ولبيان وجه الاختلاف بين الصيغتين قال الدكتور فاضل السامرائي:" " الآية الأولى جاء معها فعل ﴿يُقْبَلُ﴾ مذكراً مع الشفاعة، والمعنى أنه لن يُقبل ممن سيشفع الشفاعة، فالكلام هنا عن الشفيع فشفاعته لن تقبل، بينما الآية الثانية جاء معها فعل ﴿تَنفَعُهَا﴾مؤنثاً مع كلمة الشفاعة، والمقصود نفي الشفاعة نفسها، فهي لن تنفع وليس الكلام عن الشفيع"(١٣٠).

فإذا علمت النفس الإنسانية عظمة يوم القيامة ورهبته، أعدت لذلك اليوم عدته، واستعدت للقاء الله تعالى بالأعمال الصالحة، والتي ستكون سبباً من أسباب نجاتها في ذلك اليوم العصيب الرهيب، نجانا الله تعالى واياكم من كرباته وأعاننا على تخطي عقباته، إنه سميع مجيب.

---

(١٣٠) لمسات بيانية في نصوص من التنزيل، للدكتور فاضل السامرائي صـ ٤٦٧، باختصار وتصرف.

المطلب الثاني: الموت نهاية كل نفس

جعل الله تعالى الموت نهاية كل نفس، وقضى تبارك وتعالى أنه لن يخلد في هذه الدنيا أي أحد، سواء أكانت نفس إنسان، أوجان، أو أملك، أو حيوان، فكل نفس ستذوق كأس الموت، قبل مفارقتها للجسد الذي كانت تسكن فيه، وقد جاء حديث القرآن الكريم عن هذه الحقيقة في آيات قرآنية متعددة، ومن هذه الآيات قوله تعالى:﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِۖ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِۖ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَۗ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَـٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴾[آل عمران: ١٨٥]، قال الإمام ابن كثير في تفسيره لهذه الآية:" يخبر تعالى إخباراً عاما يعم جميع الخليقة بأن كل نفس ذائقة الموت، الإنس والجن يموتون، وكذلك الملائكة وحملة العرش، وهو وحده الحي الذي لا يموت، وينفرد الواحد الأحد القهار بالديمومة والبقاء، فيكون آخرا كما كان أولا.

وهذه الآية فيها تعزية لجميع الناس، فإنه لا يبقى أحد على وجه الأرض حتى يموت، فإذا انقضت المدة وفرغت النطفة التي قدر الله وجودها من صلب آدم وانتهت البرية أقام الله القيامة وجازى الخلائق بأعمالها جليلها وحقيرها، كثيرها وقليلها، كبيرها وصغيرها، فلا يظلم أحدا مثقال ذرة؛ ولهذا قال:﴿ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِۖ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ

﴿ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ﴾ أي: من جنب النار ونجا منها وأدخل الجنة، فقد فاز كل الفوز، وقوله: ﴿ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴾ تصغيرا لشأن الدنيا، وتحقيرا لأمرها، وأنها، دنيئة فانية قليلة زائلة، قال قتادة: هي متاع متروك أوشكت أن تضمحل عن أهلها، فخذوا من هذا المتاع طاعة الله إن استطعتم"(١٣١).

قال الشيخ أبو زهرة، وهو يتحدث عن هذه الآية وما فيها من إشارات بيانية:" وفي هذه الآية إشارات بيانية رائعة؛ وهي أنه أسند ذوق الموت إلى النفس، ولم يسنده إلى الشخص؛ لأن النفس والشخص جزءا جسم ونفس، وإن النفس تبقى بعد مفارقة الجسم، فهي التي تذوق الموت، كما ذاقت الحياة الدنيا، فإسناد الذوق إلى النفس؛ لأنها باقية وقد تغيرت حياتها من حال إلى حال، فبعد أن كانت في غلاف من جسم من الطين، قد تجردت أبدا منه حتى تلتقي به يوم البعث والنشور، وبعد أن تذوق النفس طعم تلك النقلة من متاع الدنيا الزائل إلى الآخرة، يكون الجزاء من نعيم أو جحيم، ولذا قال سبحانه: ﴿ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾، والأجر هو العطاء خيرا أو شرا.

---

(١٣١) تفسير ابن كثير ٢/ ١٧٧، باختصار.

وهنا إشارة بيانية أخرى رائعة وذلك أنه عبَّر عن إقبال الموت بذوقه، للإشارة إلى أنه عند ذوق الموت سيكون المذاق إما مرا حنظلا يومئ إلى ما يتبعه من عقاب، وإما أن يكون المذاق حلوا هنيئا، فيكون إيماء إلى ما يكون يوم القيامة من نعيم مقيم، والتعبير عن حلول الأجل في الدنيا بذوق الموت فيه استعارة بتشبيه الموت عند إقباله الرهيب أو الرغيب بالأمر الذي يذاق فيؤلم، أو يذاق فيسعد"[١٣٢].

ومن الآيات القرآنية الدالة على هذا المعنى قوله تعالى: ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِۗ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةًۖ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴾[الأنبياء: ٣٥.]،

قال ابن عاشور:" المراد بالنفس في الآية النفوس الحالة في الأجساد كالإنسان والحيوان، وذوق الموت ذوق آلام مقدماته وأما بعد حصوله فلا إحساس للجسد.

وفي هذه الآية علَّم الله تعالى المسلمين أن الموت مكتوب على كل نفس حتى لا يحسبوا أن الرسول صلى الله عليه وسلم مخلد، وقد عرض لبعض المسلمين عارض من ذلك، ومنهم عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فقد قال يوم انتقال النبي صلى الله عليه وسلم إلى الرفيق الأعلى:" ليرجعن رسول الله فيقطع أيدي قوم وأرجلهم" حتى حضر أبو بكر رضي الله عنه وثبته الله في

([١٣٢]) زهرة التفاسير، لأبي زهرة ٣/ ١٥٣٥باختصار وتصرف.

ذلك الهول فكشف عن وجه النبي صلى الله عليه وسلم وقبله وقال: "طبت حيا وميتا والله لا يجمع الله عليك موتتين".

وجملة ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً﴾، فيها بيان أن الحياة الدنيا مشتملة على خير وشر وأن الدنيا دار ابتلاء، والبلوى: الاختبار، وجملة ﴿وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ فيها إثبات للبعث، فجمعت هذه الآية الموت والحياة والنشر، وتقديم الجار والمجرور للرعاية على الفاصلة وإفادة تقوي الخبر، "[١٣٣].

ومن الآيات القرآنية الدالة على هذا المعنى قوله تعالى: ﴿يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ أَرْضِي وَٰسِعَةٌ فَإِيَّٰيَ فَٱعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ [العنكبوت: ٥٦ – ٥٧]، وهذه الآية جاءت في سياق الحديث عن الهجرة من مكة إلى المدينة، وذلك حينما اشتد أذي المشركين من أهل مكة للمؤمنين، فرغَّبهم الله تعالى للهجرة إلى أرض الله الواسعة، ثم ذكَّرهم الله تعالى بموت أنفسهم في نهاية المطاف؛ ليهوِّن عليهم أمر الهجرة وفراق الأوطان، وبيَّن لهم أن المرجع والمصير إليه سبحانه وتعالى، قال سيد قطب في تفسيره حول هذه الآية:" قوله تعالى:﴿يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ أَرْضِي وَٰسِعَةٌ﴾أي: أنتم عبادي، وهذه أرضي، وهي، فسيحة تسعكم، فما الذي يمسككم في مقامكم الضيق، الذي تفتنون فيه عن دينكم، ولا تملكون أن

([١٣٣]) التحرير والتنوير، لابن عاشور ٩/ ١٥٧، باختصار وتصرف.

تعبدوا الله مولاكم؟ غادروا هذا الضيق إلى أرضي الواسعة، ناجين بدينكم، أحرارا في عبادتكم﴿ فَإِيَّـٰىَ فَٱعۡبُدُونِ ﴾، إن هاجس الأسى لمفارقة الوطن هو الهاجس الأول الذي يتحرك في النفس التي تُدعى للهجرة، ومن هنا يمس قلوبهم بهاتين اللمستين: بالنداء الحبيب القريب: ﴿ يَـٰعِبَادِىَ ﴾ وبالسعة في الأرض: ﴿إِنَّ أَرۡضِى وَٰسِعَةٌ ﴾ وما دامت كلها أرض الله، فأحب بقعة منها إذن هي التي يجدون فيها السعة لعبادة الله وحده دون سواه.

ثم يمضي السياق القرآني يتتبع هواجس القلوب وخواطرها، فإذا الخاطر الثاني هو الخوف من خطر الهجرة، خطر الموت الكامن في محاولة الخروج وقد كان المشركون يمسكون بالمؤمنين في مكة، ولا يسمحون لهم بالهجرة عندما أحسوا بخطرهم بعد خروج المهاجرين الأولين ثم خطر الطريق لو قدر لهم أن يخرجوا من مكة، ومن هنا تجيء اللمسة الثانية: ﴿ كُلُّ نَفۡسٍ ذَآئِقَةُ ٱلۡمَوۡتِۖ ثُمَّ إِلَيۡنَا تُرۡجَعُونَ ﴾، فالموت حتم في كل مكان، فلا داعي أن يحسبوا حسابه، وهم لا يعلمون أسبابه، وإلى الله المرجع والمآب، فهم مهاجرون إليه، في أرضه الواسعة، وهم عائدون إليه في نهاية المطاف، وهم عباده الذين يؤويهم إليه في الدنيا والآخرة، فمن ذا يساوره الخوف، أو يهجس في ضميره القلق، بعد هذه اللمسات؟ "[١٣٤].

([١٣٤]) في ظلال القرآن، لسيد قطب ٥/ ٤٧٢، باختصار وتصرف يسير.

فإذا علم المؤمن أن نفسه بيد الله تعالى، وأن مرجعه إلى الله، عاش في هذه الدنيا عزيزاً لا يخاف إلاَّ الله تعالى، ويعد عدته من الأعمال الصالحة التي ستكون من أسباب نجاته غداً بين يدي الله تعالى.

المطلب الثالث: مجادلة النفس عن صاحبها يوم القيامة

فطر الله تعالى الإنسان على حب نفسه والمدافعة عنها أمام الأخطار التي تواجهه، فإذا ما وقع الإنسان في أزمة أو داهمته الأخطار، فإنه سرعان ما ينبري للمجادلة عن نفسه، وتبرير أخطائها بكل السبل الممكنة، وفي يوم القيامة يكون الإنسان أحوج ما يكون للمجادلة عن نفسه؛ وذلك لما في ذلك من المخاطر والأهوال، وقد ذكر الله تعالى هذه الصورة من صور مجادلة الإنسان عن نفسه في يوم القيامة، في قوله تعالى:﴿يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَن نَّفْسِهَا وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ [النحل: ١١١]، قال الشيخ أبو زهرة في تفسيره لهذه الآية:" المجادلة: هي المحاجة أي تُحاج كل نفس عن نفسها فيما نسب إليها، فتحتج كل نفس بنفسها عن نفسها، فلا يكون معها ولي ولا شفيع، ولا نصير، ولا فدية ولا عدل، بل تكون هي المسئولة عما فعلت وارتكبت، وأعمالها محصية ثابتة، كما جاء في قوله تعالى: ﴿ وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾ ﴾ [الإسراء: ١٣ – ١٤] وفي قوله تعالى:﴿ يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَن نَّفْسِهَا ﴾ [النحل: ١١١]، أي تحضر الأنفس، وتسأل عمَّا قدمت، وتنطق عليهم أيديهم وألسنتهم، فالحساب تكون أدلته مهيأة ثابتة، ولا يكون إلا الحُكْم، والحاكم في ذلك اليوم اللَّه الواحد

القهار، فلا نقض لحكمه ﴿ وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ ﴾، والمراد جزاء ما عملت؛ ولأن الجزاء عدل وفقاً للعمل، ويساويه تمام المساواة، وقد عبَّر بالعمل بدل الجزاء، إذ هي شيء واحد، أو متساويان تساويا مطلقا، وأكد الله سبحانه المساواة والوفاق بين العمل وجزائه فقال، ﴿ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾، أي لَا ينقص من عملهم شيء، فلا ظلم؛ لأن الحاكم هو اللَّه، وهو خير الفاصلين"(١٣٥).

وقد يسأل سائلٌ قائلاً: وهل للإنسان أكثر من نفس، فتجادل كل واحدة منهما عن نفسها؛ لأن الله تعالى قال:﴿ كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَن نَّفْسِهَا ﴾؟ وللجواب عن هذا التساؤل قال أهل التفسير:" إن النفس قد يُراد بها بدن الحي، وقد يراد بها ذات الشيء وحقيقته، فالنفس الأولى هي الجُثَّةُ والبدن، والثانية: عين النفس وذاتها، فكأنه قيل: يوم يأتي كل إنسان يجادل عن ذاتها ولا يهمها شأن غيرها، والحقيقة أن للإنسان نفساً واحدة في الدنيا والآخرة، ولكنها تختلف في الدنيا عنها يوم القيامة؛ لأن الحق سبحانه وتعالى منحها في الدنيا الاختيار، وجعلها حرة في أن تفعل أو لا تفعل، فكان من النفوس الطائعة، و منها العاصية، فإذا ما وقفت النفس في موقف القيامة للحسان، وواجهتْ الحق الذي كانت تخالفه علمت أن هذا الموقف لا تفيد فيه مكابرة،

---

(١٣٥) تفسير أبي زهرة ٨/ ٤٢٨٣، باختصار وتصرف.

ولا حيلة لها إلا أن تجادل وتدافع عن نفسها، فكأن نفس القيامة تجادل عن نفس الدنيا "[١٣٦].

وقد ذكر الله تعالى في كتابه الكريم نماذج من جدال المشركين عن أنفسهم يوم القيامة، فمن ذلك جدالهم أنهم يحلفون بالله الأيمان الكاذبة أنهم ما كانوا في الدنيا مشركين، قال تعالى: ﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ أَيْنَ شُرَكَآؤُكُمُ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴿٢٣﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ ۚ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾ [الأنعام: ٢٢ – ٢٤]، قال سيد قطب معلقاً على هذه الآية:" وفي هذا المشهد يواجه المشركين بسؤالهم عن شركائهم أين هم؟ فإنه لا يبدو لهم أثر، ولا يكفون عن أتباعهم الهول والعذاب، فالمشهد شاخص، والحشر واقع، والمشركون مسؤولون ذلك السؤال العظيم، الأليم ﴿ أَيْنَ شُرَكَآؤُكُمُ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴾؟ وهنا يفعل الهول فعله، فيشعرون أنه لم يكن شرك، ولم يكن شركاء، لم يكن لهذا كله من وجود لا في حقيقة ولا واقع، هنا يفتنون فيذهب الخبث، ويسقط الركام، كما قال تعالى:﴿ ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴾، إن الحقيقة التي تجلت عنها الفتنة، هي تخليهم عن الشرك الذي زاولوه في حياتهم الدنيا، ولكن حيث لا ينفع الإقرار بالحق والتعري من الباطل، لقد فات

---

(١٣٦) تفسير الرزي ، ٢٠ / ١٠١، وينظر: تفسير الشعراوي، صـــ٥٠٥١.

الأوان، فاليوم للجزاء لا للعمل، فلا وجود لشركائهم مع الله في الحقيقة، وأنهم اليوم غاب عنهم ما كانوا يفترونه، فاعترفوا بالحق بعد ما غاب عنهم الافتراء: ﴿ ٱنظُرۡ كَيۡفَ كَذَبُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡۚ وَضَلَّ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ ٢٤ ﴾، فالكذب منهم كان على أنفسهم؛ فهم كذبوا عليها وخدعوها يوم اتخذوا مع الله شريكاً، وافتروا على الله هذا الافتراء، وقد ضل عنهم ما كانوا يفترون وغاب، في يوم الحشر والحساب"(١٣٧).

ومن شدة الأهوال في يوم القيامة، وما تجد فيه الخلائق من الكربات والشدائد، يتمنى كل إنسان النجاة لنفسة فيجادل عنها بكل الوسائل الممكنة والمتاحة، رغبة في النجاة في ذلك اليوم الرهيب العصيب، ولا يهتم لنجاة أحد من الخلق، ويكون شعار الناس في ذلك اليوم " **نفسي نفسي**" الا محمداً صلى الله عليه وسلم فإنه يهمه نجاة أمته؛ لهذا يسأل من ربه أن يشفعه في أمته في ذلك اليوم العصيب الذي تجادل فيه كل نفس ن نفسها، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال:" كنا مع النبي صلى الله عليه وسلم في دعوة فرفع إليه الذراع وكانت تعجبه فنهس منها نهسة وقال:" **أنا سيد القوم يوم القيامة**، هل تدرون بم يجمع الله الأولين والآخرين في صعيد واحد فيبصرهم الناظر ويسمعهم الداعي، وتدنو منهم الشمس فيقول بعض الناس: ألا ترون إلى ما أنتم فيه إلى ما بلغكم، ألا تنظرون إلى من يشفع لكم إلى ربكم؟ فيقول

---

(١٣٧)في ظلال القرآن، لسيد قطب، ٣/ ٢ .

بعض الناس: أبوكم آدم فيأتونه فيقولون: يا آدم أنت أبو البشر خلقك الله بيده ونفخ فيك من روحه وأمر الملائكة فسجدوا لك وأسكنك الجنة ألا تشفع لنا إلى ربك، ألا ترى ما نحن فيه وما بلغنا؟ فيقول: ربي غضب غضبا لم يغضب قبله مثله ولا يغضب بعده مثله، ونهاني عن الشجرة فعصيته **نفسي نفسي**، اذهبوا إلى غيري، اذهبوا إلى نوح فيأتون نوحا فيقولون: يا نوح أنت أول الرسل إلى أهل الأرض وسماك الله عبدا شكورا، أما ترى إلى ما نحن فيه ألا ترى إلى ما بلغنا ألا تشفع لنا إلى ربك؟ فيقول: ربي غضب اليوم غضبا لم يغضب قبله مثله ولا يغضب بعده مثله **نفسي نفسي**، ائتوا النبي صلى الله عليه وسلم فيأتوني فأسجد تحت العرش فيقال: **يا محمد ارفع رأسك، واشفع تشفع، وسل تعطه**"[١٣٨].

فمن شدة تعلق بعض الأنفس بالجدال في الدنيا، تظن أن الجدال سوف ينفعها في الآخرة، فتأتي تجادل عن نفسها يوم القيامة، لكن ذلك لا ينفعها في ذلك اليوم الرهيب العصيب، ويا ليت أصحاب هذه الأنفس عملت أعمالاً صالحة في الدنيا، فتأتي هذه الأعمال تجادل عن صاحبها يوم القيامة، فتكون سبباً من أسباب نجاتها يوم القيامة، لكنها ركنت إلى الجدال وتركت العمل، فندمت يوم لا ينفع الندم، فاللهم كن معنا يوم تأتي كل نفس تجادل عن نفسها.

([١٣٨]) صحيح البخاري، برقم (٣١٦٢)، وصحيح مسلم برقم(٣٢٢)، واللفظ للبخاري.

المطلب الرابع: شهادة النفس على صاحبها يوم القيامة

بعد أن تجد كل نفس ما عملته من أعمالها يوم القيامة، يحاول البعض أن يُنكر ما عمل في الحياة الدنيا، وهنا يأتي دور الشهود على هذه الأعمال، وقد حدثنا القرآن عن شهادة الأنفس المخطئة على أصحابها، وذلك في قوله تعالى: ﴿ يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَقُصُّونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِي وَيُنذِرُونَكُمۡ لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَٰذَاۚ قَالُواْ شَهِدۡنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَاۖ وَغَرَّتۡهُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا وَشَهِدُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ أَنَّهُمۡ كَانُواْ كَٰفِرِينَ ﴾ [الأنعام: ١٣٠]' قال الإمام الطبري في تفسيره لهذه الآية:" وهذا خبر من الله جل ثناؤه عما هو قائل يوم القيامة لهؤلاء العادلين به من مشركي الإنس والجن، يخبر أنه يقول لهم تعالى ذكره يومئذ: ﴿ يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَقُصُّونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِي ﴾ أي: يخبرونكم بما أوحي إليهم من تنبيهي إياكم على مواضع حججي، وتعريفي لكم أدلتي على توحيدي، وتصديق أنبيائي، والعمل بأمري، والانتهاء إلى حدودي ﴿ وَيُنذِرُونَكُمۡ لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَٰذَا ﴾أي: يحذرونكم لقاء عذابي في يومكم هذا، وعقابي على معصيتكم إياي، فتنتهوا عن معاصي، وهذا تقريع وتوبيخ من الله جل ثناؤه لهؤلاء الكفرة على ما سلف منهم في الدنيا من الفسوق والمعاصي، عند ذلك يقولون:﴿ شَهِدۡنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَاۖ وَغَرَّتۡهُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا وَشَهِدُواْ عَلَىٰٓ

﴿ أَنفُسِهِمۡ أَنَّهُمۡ كَانُواْ كَٰفِرِينَ ﴾، وهذا خبر من الله جل ثناؤه عن قول مشركي الجن والإنس عند تقريعه إياهم بقوله لهم: ﴿ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَقُصُّونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِي وَيُنذِرُونَكُمۡ لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَٰذَاۚ ﴾، أنهم يقولون: ﴿ شَهِدۡنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَاۖ ﴾، بأن رسلك قد أتتنا بآياتك، وأنذرتنا لقاء يومنا هذا، فكذبناها وجحدنا رسالتها، ولم نتبع آياتك ولم نؤمن بها.

وقدغرَّت هؤلاء العادلين بالله الأوثان والأصنام، وأولياؤهم من الجن، قال الله تعالى مخبراً عنهم: ﴿ وَغَرَّتۡهُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا ﴾، يعني: زينة الحياة الدنيا، وطلب الرياسة فيها والمنافسة عليها، أن يسلموا لأمر الله فيطيعوا فيها رسله، فاستكبروا وكانوا قوما عالين، ثم قال تعالى: ﴿ وَشَهِدُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ أَنَّهُمۡ كَانُواْ كَٰفِرِينَ ﴾ يعني: هؤلاء العادلين به يوم القيامة، أنهم كانوا في الدنيا كافرين به وبرسله، لتتم حجة الله عليهم بإقرارهم على أنفسهم بما يوجب عليهم عقوبته وأليم عذابه"[١٣٩].

وقال سيد قطب عند هذه الآية:" ها هم أولاء يشهدون على أنفسهم؛ حيث لا تجدي المكابرة والإنكار، فأي مصير أبأس من أن يجد الإنسان نفسه في هذا المأزق، الذي لا يملك أن يدفع عن نفسه فيه، ولا بكلمة الإنكار! ولا بكلمة الدفاع!.

([١٣٩]) تفسير الطبري ١٢/ ١٢٠، باختصار وتصرف.

ونقف لحظة أمام الأسلوب القرآني العجيب في رسم المشاهد حاضرة ورد المستقبل المنظور واقعا مشهودا؛ وجعل الحاضر القائم ماضيا بعيدا!، إن هذا القرآن يتلى على الناس في هذه الدنيا الحاضرة؛ وفي هذه الأرض المعهودة، ولكنه يعرض مشهد الآخرة كأنه حاضر قريب؛ ومشهد الدنيا كأنها ماض بعيد! فننسى أن ذلك المشهد سيكون يوم القيامة؛ ونستشعر أنه أمامنا اللحظة ماثل! وأنه يتحدث عن الدنيا التي كانت كما يتحدث عن التاريخ البعيد! ﴿ وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَشَهِدُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَٰفِرِينَ ﴾، وعلى ختام المشهد يلتفت السياق بالخطاب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن وراءه من المؤمنين؛ وإلى الناس أجمعين، ليعقب على هذا الحكم الصادر بجزاء الشياطين من الإنس والجن؛ وبإحالة هذا الحشد الحاشد إلى النار؛ وعلى إقرارهم بأن الرسل قد جاءت إليهم، تقص عليهم آيات الله، وتنذرهم لقاء يومهم هذا؛ ليعقب على هذا المشهد وما كان فيه، بأن عذاب الله لا ينال أحدا إلا بعد الإنذار؛ وأن الله لا يأخذ العباد بظلمهم " أي بشركهم " إلا بعد أن ينبهوا من غفلتهم؛ وتقص عليهم الآيات، وينذرهم المنذرون: ﴿ ذَٰلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَٰفِلُونَ ﴿١٣١﴾ ﴾[الأنعام: ١٣١] لقد اقتضت رحمة الله بالناس ألا يؤاخذهم على الشرك والكفر حتى يرسل إليهم الرسل، على الرغم مما أودعه فطرتهم من الاتجاه إلى ربها، فقد تضل، هذه الفطر وعلى الرغم مما أعطاهم من قوة العقل والإدراك فالعقل قد يضل تحت

ضغط الشهوات وعلى الرغم مما في كتاب الكون المفتوح من آيات فقد تتعطل أجهزة الاستقبال كلها في الكيان البشري، لقد ناط بالرسل والرسالات مهمة استنقاذ الفطرة من الركام، واستنقاذ العقل من الانحراف، واستنقاذ البصائر والحواس من الانطماس، وجعل العذاب مرهونا بالتكذيب والكفر بعد البلاغ والإنذار.

وهذه الحقيقة كما أنها تصور رحمة الله بهذا الإنسان وفضله، كذلك تصور قيمة المدارك البشرية من فطرة وعقل؛ وتقرر أنها لا تعصم من الضلال، ولا تهدي إلى يقين، ولا تصبر على ضغط الشهوات، ما لم تساندها العقيدة وما لم يضبطها الدين "(١٤٠).

ومن الآيات القرآنية الدالة على ذلك قوله تعالى:﴿ وَجَآءَتۡ كُلُّ نَفۡسٖ مَّعَهَا سَآئِقٞ وَشَهِيدٞ ٢١ لَّقَدۡ كُنتَ فِي غَفۡلَةٖ مِّنۡ هَٰذَا فَكَشَفۡنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلۡيَوۡمَ حَدِيدٞ ٢٢ ﴾[ق: ٢١ – ٢٢]، قال الإمام الشوكاني في تفسيره لهذه الآية:" أي : جاءت كل نفس من النفوس معها من يسوقها ، ومن يشهد لها، أو عليها، واختلف في السائق والشهيد، فقال الضحاك: السائق من الملائكة، والشهيد من أنفسهم، يعني: الأيدي والأرجل، وقال الحسن، وقتادة: سائق يسوقها، وشاهد يشهد عليها بعملها، وقال ابن مسلم: السائق: قرينها من الشياطين، سمي سائقا؛ لأنه يتبعها وإن لم يحثها، وقال مجاهد: السائق والشهيد ملكان، وقيل:

---

(١٤٠) في ظلال القرآن، لسيد قطب ٣/ ١٤٧، باختصار.

السائق: الملك، والشهيد: العمل، وقيل: السائق: كاتب السيئات، والشهيد: كاتب الحسنات،﴿ لَّقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا ﴾ أي: يقال له: لقد كنت في غفلة من هذا، قال الضحاك: المراد بهذا: المشركون؛ لأنهم كانوا في غفلة من عواقب أمورهم، وقال ابن زيد: الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم، أي : لقد كنت يا محمد في غفلة من الرسالة، وقال أكثر المفسرين: المراد به جميع الخلق برهم، وفاجرهم، واختار هذا ابن جرير[١٤١]،﴿ فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ ﴾ الذي كان في الدنيا، يعني: رفعنا الحجاب الذي كان بينك وبين أمور الآخرة، ورفعنا ما كنت فيه من الغفلة عن ذلك ﴿ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴾أي: نافذ تبصر به ما كان يخفى عليك في الدنيا، قال السدي: المراد بالغطاء: أنه كان في بطن أمه فولد، وقيل : إنه كان في القبر فنشر، والأول أولى.

والبصر قيل: هو بصر القلب، وقيل: بصر العين، وقال مجاهد: بصرك إلى لسان ميزانك حين توزن حسناتك وسيئاتك، وبه قال الضحاك"[١٤٢].

فإذا علم المؤمن أن الله تعالى سوف يبعث عليه شهوداً من نفسه على أعماله التي عملها في الدنيا، عند ذلك سينتبه لأعماله التي يعملها في الحياة الدنيا، فيعد لكل عملٍ جوابا ولكل جوابٍ صوابا.

([١٤١]) تفسير الطبري ٢٢/ ٣٥٠.

([١٤٢]) فتح القدير، للشوكاني ٧/ ٣٠، باختصار.

المطلب الخامس: مجازاة النفس بما عملت يوم القيامة

وقد حدثنا الله تعالى في كتابه الكريم عن هذه القضية في قوله تعالى: ﴿ ٱلۡيَوۡمَ تُجۡزَىٰ كُلُّ نَفۡسِۭ بِمَا كَسَبَتۡۚ لَا ظُلۡمَ ٱلۡيَوۡمَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ ﴾ [غافر: ١٧]، قال الإمام القرطبي في تفسيره لهذه الآية:" أي: يقال لهم إذا أقروا بالملك يومئذ لله وحده ﴿ ٱلۡيَوۡمَ تُجۡزَىٰ كُلُّ نَفۡسِۭ بِمَا كَسَبَتۡۚ ﴾ من خير أو شر، ﴿ لَا ظُلۡمَ ٱلۡيَوۡمَۚ ﴾ أي لا ينقص أحد شيئا مما عمله، ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ ﴾ أي لا يحتاج إلى تفكر وعقد يد كما يفعله الحساب، لأنه العالم الذي لا يعزب عن علمه شيئ فلا يؤخر جزاء أحد للاشتغال بغيره، وكما يرزقهم في ساعة واحدة يحاسبهم كذلك في ساعة واحدة، وقيل: سريع المجازاة للعباد بأعمالهم، وقيل: المعنى لا يشغله شأن عن شأن، فيحاسبهم في حالة واحدة، قال الحسن: حسابه أسرع من لمح البصر، وفي الخبر" إن الله يحاسب في قدر حلب شاة"، وقيل: هو أنه إذا حاسب واحدا فقد حاسب جميع الخلق، وقيل لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه كيف يحاسب الله العباد في يوم؟ قال كما يرزقهم في يوم! ومعنى الحساب: تعريف الله عباده مقادير الجزاء على أعمالهم، وتذكيره إياهم بما قد نسوه، وقيل: معنى الآية سريع بمجيء يوم الحساب، فالمقصد بالآية الإنذار بيوم القيامة قلت: والكل

محتمل، فيأخذ العبد لنفسه في تخفيف الحساب عنه بالأعمال الصالحة، وإنما يخف الحساب في الآخرة على من حاسب نفسه في الدنيا"(١٤٣).

وقال الإمام الرازي في تفسيره لهذه الآية:" هذه الآية على اختصارها مشتملة على أصول عظيمة الموقع في الدين ومن هذه الأصول، إثبات الكسب لنفس الإنسان وهو عبارة عن كون أعضائه سليمة صالحة للفعل والترك فما دام يبقى على هذا الاستواء امتنع صدور الفعل والترك عنه، فإذا انضاف إليه الداعي إلى الفعل أو الداعي إلى الترك وجب صدور ذلك الفعل أو الترك عنه، وقوله تعالى: ﴿لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ﴾ أي: أنه لا يقع في ذلك اليوم نوع من أنواع الظلم، ثم قال تعالى:﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ وذكر هذا الكلام في هذا الموضع لائق جدا؛ لأنه تعالى لما بين أنه لا ظلم بين أنه سريع الحساب، وذلك يدل على أنه يصل إليهم ما يستحقونه في الحال، والله أعلم"(١٤٤).

ومن الآيات القرآنية الدالة على هذا المعنى قوله تعالى:﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾[آل عمران: ٣٠]، قال الإمام

---

(١٤٣) تفسير القرطبي ١٥/ ٣٠١، باختصار.

(١٤٤) تفسير الرازي ١٣/ ٣١٨، باختصار وتصرف.

الشوكاني في تفسيره لهذه الآية:" يوم القيامة يحضر للعبد جميع أعماله من خير وشر، فما رأى من أعماله حسنا سره ذلك وأفرحه، وما رأى من قبيح ساءه وغاظه، وود لو أنه تبرأ منه، وأن يكون بينهما أمدا بعيدا، ثم قال تعالى مؤكدا ومهددا ومتوعدا:﴿ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفۡسَهُۥۗ ﴾ أي: يخوفكم عقابه، ثم قال مرجيا لعباده لئلا ييأسوا من رحمته ويقنطوا من لطفه: ﴿ وَٱللَّهُ رَءُوفُۢ بِٱلۡعِبَادِ ﴾ قال الحسن البصري: من رأفته بهم حذرهم نفسه، وقال غيره: أي: رحيم بخلقه، يحب لهم أن يستقيموا على صراطه المستقيم ودينه القويم، وأن يتبعوا رسوله الكريم"(١٤٥).

وقال الشيخ محمد رشيد رضا:" والمعنى احذروا يوم تجد كل نفس عملها من الخير مهما قل محضرا، ومعنى كونه ﴿ مُّحۡضَرٗا ﴾ أن فائدته ومنفعته تكون حاضرة لديه، وأما عمل السوء فتود كل نفس اقترفته لو بعد عنها ولم تره وتؤخذ بجزائه، وهذا يدل على أن عمل الشر يكون محضرا أيضا، ولكنه عبر عنه بما ذكر ليدل على أن إحضاره مؤذ لصاحبه يود لو لم يكن؛ أي ومنه يعلم أن إحضار عمل الخير يكون غبطة لصاحبه وسرورا، فتجد كل نفس ما عملت محضرا فتسر المحسنة وتنعم بما أحسنت، وتبتئس المسيئة وتغم بما أساءت، وتود لو كان بينها وبينه بعد المشرقين، وهذه الأعمال

---

(١٤٥) تفسير ابن كثير،٢/ ٣١.

مرسومة في صحائف هذه الأنفس وهي صفات لها، وعن هذه الصفات صدرت تلك الحركات فزادت الصفات رسوخا والنقوش في النفس تمكنا، حتى ارتقت بالمحسن إلى عليين، حيث كتاب الأبرار، وهبطت بالمسيء إلى سجين، حيث كتاب الفجار، ﴿ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفۡسَهُۥ ﴾ فإنه من ورائكم محيط، وسنته في تأثير الأعمال في النفوس وجعل آثار أعمالها مصدرا لجزائها حاكمة عليكم، أفلا يجب عليكم أن تحذروه بما أوتيتم من القدرة على الخير والميل إليه بترجيحه على ما يعرض على الفطرة من تزيين عمل السوء والتوبة إليه سبحانه مما غلبتم عليه في الماضي، ﴿ وَٱللَّهُ رَءُوفُۢ بِٱلۡعِبَادِ ﴾ ومن رأفته أن جعل الفطرة سليمة ميالة بطبعها إلى الخير، وتتألم مما يعرض لها من الشر، وأن جعل للإنسان أنواعا من الهدايات يرجح بها الخير على الشر كالعقل والدين، وأن جعل جزاء الخير مضاعفا، وأن جعل أثر الشر في النفس قابلا للمحو بالتوبة والعمل الصالح، وأن أكثر التحذير من عاقبة السوء ليذكر الإنسان ولا ينسى، لعله يتذكر أو يخشى"[١٤٦].

فإذا علم المؤمن أن الله تعالى سوف يجازيه في آخرته بما عمل، أحسن أعمله في هذه الحياة الدنيا، وتاب إلى الله من أعمال سيئة قد عملها فيما مضى بينه وبين ربه، وبذلك يكون ممن يحذرون لقاء الله تعالى، ويعدون العدة للوقوف بين يديه في الآخرة.

([١٤٦]) تفسير المنار، لمحمد رشيد رضا' باختصار.

المطلب السادس: توفية النفس بما كسبت

حذَّر الله الناس من يوم القيامة، وقد ووصف القرآن الكريم لنا مشاهد متنوعة، من مشاهد يوم القيامة؛ حتى تنزجر النفوس وتستقيم على أمر الله تعالى، وفي ذلك اليوم ستكون العودة فيه إلى الله تعالى، وسيُجازي الله كل نفس بما عملت في الحياة الدنيا إن خيرا فخير وإن شرا فشرا، وقد تحدث القرآن الكريم عن توفية الأنفس لأعمالها يوم القيامة، ومن الآيات القرآنية الدالة على ذلك قاله تعالى: ﴿ وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا تُرۡجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِۖ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا كَسَبَتۡ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ﴾ [البقرة: ٢٨١]، قال الإمام الطبري في تفسيره لهذه الآية :" يعني بذلك جل ثناؤه واحذروا أيها الناس ﴿ يَوۡمٗا تُرۡجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِۖ ﴾ فتلقونه فيه، أن تردوا عليه بسيئات تهلككم، أو بمخزيات تخزيكم، أو بفاضحات تفضحكم، فتهتك أستاركم، أو بموبقات توبقكم، فتوجب لكم من عقاب الله ما لا قبل لكم به، وإنه يوم مجازاة بالأعمال، لا يوم استعتاب، ولا يوم استقالة وتوبة وإنابة، ولكنه يوم جزاء وثواب ومحاسبة، توفى فيه كل نفس أجرها على ما قدمت واكتسبت من سيئ وصالح، لا تغادر فيه صغيرة ولا كبيرة من خير وشر إلا أحضرت، فوفيت جزاءها بالعدل من ربها، وهم لا يظلمون، وكيف يظلم من جوزي بالإساءة مثلها، وبالحسنة عشر أمثالها؟! كلا بل عدل عليك أيها المسيء، وتكرم عليك فأفضل وأسبغ أيها المحسن،

فاتقى امرؤ ربه، وأخذ منه حذره، وراقبه أن يهجم عليه يومه، وهو من الأوزار ظهره ثقيل، ومن صالحات الأعمال خفيف، فإنه عز وجل حذر فأعذر، ووعظ فأبلغ"[١٤٧].

وقال سيد قطب:" واليوم الذي يرجعون فيه إلى الله، ثم توفى كل نفس ما كسبت يوم عسير، له في القلب المؤمن وقع؛ ومشهده حاضر في ضمير المؤمن، وله في ضمير المؤمن هول، والوقوف بين يدي الله في هذا اليوم خاطرا يزلزل الكيان!

وهو تعقيب يتناسق مع جو المعاملات، جو الأخذ والعطاء، جو الكسب والجزاء، إنه التصفية الكبرى للماضي جميعه بكل ما فيه، والقضاء الأخير في الماضي بين كل من فيه، فما أجدر القلب المؤمن أن يخشاه وأن يتوقاه .

إن التقوى هي الحارس القابع في أعماق الضمير؛ يقيمه الإسلام هناك لا يملك القلب فرارا منه؛ لأنه في الأعماق هناك!، إنه الإسلام، النظام القوي، الحلم الندي الممثل في واقع أرضي، رحمة الله بالبشر، وتكريم الله للإنسان، والخير الذي تشرد عنه البشرية؛ ويصدها عنه أعداء الله وأعداء الإنسان![١٤٨]"

([١٤٧]) تفسير الطبري ٦/ ٤١.

([١٤٨]) في ظلال القرآن، لسيد قطب ١/ ٣١٥، باختصار.

ومن الآيات القرآنية الدالة على ذلك قوله تعالى:﴿ فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَاهُمْ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ [آل عمران: ٢٥]' قال الإمام الطبري في تفسيره لهذه الآية:" فأي حال يكون حال هؤلاء القوم الذين قالوا هذا القول، وفعلوا ما فعلوا من إعراضهم عن كتاب الله، واغترارهم بربهم، وافترائهم الكذب؟ وذلك من الله عز وجل وعيد لهم شديد، وتهديد غليظ.

وإنما يعني بقوله:﴿ فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَاهُمْ ﴾ الآية: فما أعظم ما يلقون من عقوبة الله وتنكيله بهم، إذا جمعهم ليوم يُوفَّى كل عامل جزاء عمله على قدر استحقاقه، غير مظلوم فيه؛ لأنه لا يعاقب فيه إلاَّ على ما اجترم، ولا يؤاخذ إلا بما عمل، يجزي المحسن بإحسانه، والمسيء بإساءته، لا يخاف أحد من خلقه منه يومئذ ظلما ولا هضما"(١٤٩).

وقال الشيخ محمد رشيد رضا في تفسيره لهذه الآية:" يعني فكيف يكون حالهم إذا جمعناهم لجزاء يوم لا ريب في مجيئه، وهو يوم الدين ووفيت كل نفس ما كسبت بأن رأت ما عملته محضرا موفى لا نقص فيه، فكان منشأ الجزاء ومناط السعادة أو الشقاء، لأنهم يرون يومئذ أن الجزاء يكون بشيء من داخل نفوسهم لا من شيء خارج عنها، يكون بما أحدثته أعمالهم فيها

---

(١٤٩) تفسير الطبري٢/ ٢٩٤.

من الصفات الحسنة أو القبيحة ومقدرة بقدر ذلك، ويرون أن الناس سواء في هذا الجزاء لا امتياز فيه بين الشعوب، بل يرون هنالك العدل الأكمل؛ ولذلك قال: ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ أي الناس المشار إليهم بلفظ كل نفس أي لا ينقص من جزاء أحد بما كسب شيء وإن كان مثقال ذرة.

إن الكسب هنا ليس خاصا بالعبادة والإيمان، بل هو عام شامل لكل ما عمله العبد من خير، فإذا أرادوا أن الآية تدل على أنه لا بد من الجزاء على الكسب لزمهم أن الكافر إذا أحسن في بعض الأعمال وجب أن يجازى عليه وهم لا يقولون بذلك؛ ولذلك خصصوا وأخرجوا الآية عن ظاهرها، وإذا نحن جمعنا بين هذه الآية التي وردت ردا لقول الذين زعموا أنهم لن تمسهم النار إلا أياما معدودة وآية البقرة التي وردت في ذلك أيضا علمنا أن مراد الله في الجزاء على كسب الإنسان بحسبه، وهو أن العبرة بتأثير العمل في النفس، فإذا كان أثره السيئ قد أحاط بعلمها وشعورها واستغرق وجدانها كانت خالدة في النار؛ لأن العمل السيئ لم يدع للإيمان أثرا صالحا فيها يعدها لدار الكرامة، بل جعلها من أهل دار الهوان بطبعها، وإذا لم يصل إلى هذه الدرجة بأن غلب عليها تأثير العمل الصالح أو استوى الأمران، فكانت بين بين جوزيت على كل بحسب درجته "[١٥٠].

([١٥٠]) تفسير المنار، لمحمد رشيد رضا ٣/ ٢٢٠، باختصار.

فإذا علم المؤمن أن توفية أعماله سيكون في يوم القيامة، حرص على عمل الأعمال الصالحة التي تقربه من الله تعالى، وتكو سبباً من أسباب نيل رضى الله تعالى، وابتعد عن الأعمال السيئة التي تباعد بينه وبين الله تعالى، وربما ستكون من أسباب هلاكه إن لم تتداركه رحمة الله تعالى، ولا يظلم ربك أحدا.

الفـــــهـــــــرس

الاستهلال ٣
الإهداء ٤
المقدمة ٥
التمهيد: تعريف بمصطلحات الكتاب..... ٧
أولا: النفس في اللغة..... ٧
ثانيا: النفس في الاصطلاح ٧
ثالثا: العلاقة بين النفس والروح..... ٩
المبحث الأول: أنواع النفس الإنسانية ١٣
أولاً: النفس الأمارة بالسوء ... .١٣
ثانياً: النفس اللوَّامة..... ١٦
ثالثا: النفس المطمئنة..... ٢٣
المبحث الثاني: من أمراض النفس الإنسانية وآفاتها ٢٧
المرض الأول: الشح ٢٧
المرض الثاني: النفاق..... ٣٦
المرض الثالث: الوسوسة..... ٤٣
المرض الرابع: اتباع الهوى..... ٥٢
المرض الخامس: تسويل النفس..... ٥٨

المرض السابع: خيانة النفس..... ٦٣
المرض الثامن: أمر الناس بالبِرْ ونسيان النفس..... ٧٣
المبحث الثالث: تكليف الأنفس، والمسؤولية عنها.....٨
المطلب الأول: تكليف الله للأنفس... .....٨٠
المطلب الثاني : مسؤولية الإنسان عن نفسه..... ٨٦
المبحث الرابع: قتل النفس الانسانية وازهاقها وبذلها..... ٩٢
المطلب الأول: النهي عن قتل النفس الإنسانية بغير حق..... ٩٢
عقوبات قاتل النفس ٩٦
هل لقاتل النفس المؤمنة عمداً من توبة؟.....٩٩
حرمة قتل الإنسان لنفسه (الانتحار)..... ١٠٢
المطلب الثاني: إزهاق النفس، وبذلها..... ١٠٥
الفرع الأول: ازهاق أنفس المنافقين ١٠٥
الفرع الثاني: بذل المؤمنين لأنفسهم..... ١٠٩
المبحث الخامس: أحوال النفس الانسانية يوم القيامة..... ١١٦
المطلب الأول: تحذير الله للأنفس من أهوال يوم القيامة.....١١٦
المطلب الثاني: الموت نهاية كل نفس ١٢٢
المطلب الثالث: مجادلة النفس عن صاحبها يوم القيامة ١٢٨
المطلب الرابع: شهادة النفس على صاحبها يوم القيامة..... ١٣٣
المطلب الخامس: مجازاة النفس بما عملت يوم القيامة ١٣٨

المطلب السادس: توفية النفس بما كسبت ١٤٨